أعلامنا
٤

الإمام
سفيان الثوري

رضي الله تعالى عنه

حياته العلمية والعملية

الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع

أعلامنا

٤

الإمام سفيان الثوري

رضي الله تعالى عنه

حياته العلمية والعملية

لم يبق من تجتمع عليه الأمة
بالرضا إلا سفيان

﴿ الأوزاعي ﴾

بقلم

الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م
الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مخطط الرسالة

تشتمل الرسالة على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

- المقدمة .
- التمهيد ، وتعرضت فيه إلى نقطتين :
  ١ً - ضرورة نشر سيرة السلف .
  ٢ً - سبب اختياري لسفيان الثوري رحمه الله تعالى.
- الباب الأول : في تاريخ حياته ، ويقع في ثلاثة فصول.
- " الثاني : في حياته العلمية ، ويقع في أربعة فصول.
- " الثالث : في حياته العملية ، ويقع في فصلين .
- خاتمة البحث .

مراجع البحث .

المحتـــوى .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، أقام الحجة على عباده فأرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ... والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وجعله أسوة للمؤمنين ، ورضي الله عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين الذين أحكموا القدوة بالرسول الكريم فكانوا بذلك من المهتدين...

أما بعد :

فلا أزال أذكر كلمة لوالدي الكريم ـ حفظه الله ـ سمعتها منه في صغري ، وطالما رددها في معرض التحدث بنعمة الله عز وجل عليه... ألا وهي : حمده الله عز وجل على أن وفقه فعرف هذا الدين من الكتب ومن سيرة السلف الصالح قبل أن يعرفه من سيرة كثير ممن حوله من الناس...

كنت أسمع هذه الكلمات وأشباهها من والدي الكريم دون أن أفهم لها معنى واضحاً، وسبباً بيناً، حتى إذا مانشأت بين الناس، وتوسعت مخالطتي للخاصة والعامة منهم، عرفت سر ذلك القول، وحقيقة تلك النعمة التي تحدث بها والدي واعتبرها من أكبر نعم الله عز وجل عليه .

ولولا أنني عشت في كنفه، ونشأت في رعايته، وعاينت سلوكه وطريقته، وعرفت عدداً من العلماء العاملين أمثاله، لقلت أيضاً مثل هذا القول،وشعرت بذلك الشعور...

فكم شوه كثير من المسلمين اليوم بسلوكهم وتصرفاتهم من صورة الاسلام الناصعة الصافية !!!

إنك إذا مابحثت عنها في صفوف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم فقلما تجدها عندهم صحيحة كاملة، أو صافية نقية، وإنما تراها جسماً بلا روح، أو روحاً ضعيفة تشوبها الشوائب ...

وإذا مافتشت عنها في صفوف كثير من الدعاة والعاملين للإسلام وجدتها فكرة نظرية أكثر منها حركة وسلوكاً، لاتتجاوز القول، ولا تؤثر في السلوك ...

لهذا كله بقيت صورة الاسلام في نفوس كثير من

أبنائه بعيدة غامضة ، أو مشوهة ناقصة ...

فأين هو ذلك الإسلام الذي علمه هؤلاء في زعمهم وفهموه ؟ وأين هو ذلك الإسلام الذي انتسب له ودعا اليه أولئك !؟

فإذا ماأراد الباحث أن يتعرف الإسلام الكامل المنشود ، فليس أمامه سبيل إلا صفحات الكتب التي جلت صورته ، وأظهرت حقيقته ، وسجلت سيرة أتباعه الصادقين...

وقليل اليوم أولئك الذين تسعدهم الأوقات بدراسة القرآن الكريم والاستبصار بسيرة الرسول العظيم، والاستئناس بسيرة السلف الصالح ليحصلوا على الإسلام كاملاً نقياً ، وإنما يأخذ معظم الناس دينهم وسلوكهم عمن حولهم من الناس ، فيرثونه ناقصاً مشوهاً ، ويورثونه لمن بعدهم كذلك ...

ولولا وعد الله عز وجل بإتمام نوره ولو كره الكافرون ، وبحفظ دينه مهما تآمر عليه المبطلون ، لذهب هذا الإسلام بعيداً ، وغاب نوره عن أعين الناس بما ضرب دونه من حجب الجهل والظلام ، وما حيك حوله من مؤامرات ...

وتحقيقاً لهذا الوعد الصادق « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[١] » هيأ الله لهذه الأمة الاسلامية طائفة قائمة على الحق مجاهدة في سبيله - مهما قل عددها - تتمثل الاسلام عقيدة وسلوكاً ، لتكون الحجة الناطقة لله على خلقه يهتدي بها المؤمنون ، ويستنير بسلوكها السالكون ، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله ...

فلا يكاد يخلو بلد من بلدان المسلمين من أفراد تلك الطائفة المنصورة التي تتحلى بالاسلام كاملاً ، وتحرص على منهجه في الحياة ، ولا تتنازل عن شيء من كمالاته وهديه، سواء في ذلك الرجال أو النساء الذين أنعم الله عليهم بهذه النعمة فاختارهم جنوداً لدينه ، مما تذهل له عقول الأعداء الكائدين لهذا الدين ، فلا يعرفون لهذه الظاهرة تفسيراً ، ولكنه وعد الله ولن يخلف الله وعده ...

من هنا كان أثر العاملين الصادقين بهذا الاسلام كبيراً ، وفضلهم على الناس عظيماً ، إذ أعادوا الثقة إلى النفوس بهذا الاسلام ، وأقاموا الحجة العملية على صلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان ، فألجموا بذلك الأعداء لهذا

(١) الآية /٩/ من سورة الحجر .

الاسلام الذين اتخذوا من واقع المسلمين النـيء حجة لهـم للطعن بهذا الاسلام ، والتشكيك في صلاحيته للتطبيق ...

وليست سيرة السلف الصالح إلا نماذج صادقة لتلك الطـائفة التي سبقت في الطريق إلى الله ، واتخذت سـيرة الرسول ﷺ أسوة ومنهاجاً فكانت في الخالدين .

فاذا ما افتقرت أمتنا اليوم إلى النماذج الصحيحـــة للشخصية المسلمة الكاملة ، فما عليها إلا أن تجد المنبع المعين الصافي في سيرة أسلافها الصالحين الذين يصدق فيهم قول الله عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهـــدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلاً »(١) .

ومن هذا الدافع نشأت من صغري محباً لسيرة السلف ومكثراً من القراءة حولها والاستماع اليها ، حتى كانت رسالتي هذه عن سفيان الثوري - رضي الله تعالى عنه - موضوع رسالتي الجامعية المقدمة لكلية الشريعة بدمشق وذلك في عام / ١٣٨٣ / ه الموافق / ١٩٦٣ / م وباشراف فضيلة الأستاذ الجليل الدكتور الشيخ محمد فوزي فيض الله - جزاه

(١) الآية / ٢٣ / من سورة الأحزاب .

الله خيراً - إلا أن شواغل الدراسة والتدريس جعلتني أتأخر في إخراجها إلى القراء الكرام .

واليوم وقد وجدت في الوقت فسحة ، وشعرت بالحاجة ملحة استعنت الله عز وجل على إخراجها وأعانني على ذلك أخي الكريم السيد محمد مطيع أبو المجد صاحب مكتبة الهدى بحلب - جزاه الله خيراً - فأسأل الله عز وجل أن يجعلها باكورة عمل مبارك ، يجد فيها القراء صفحة ناصعة مشرقة من صفحات سلفنا الصالح رحمهم الله ، وأن يلهمنا جميعاً السداد والرشاد في القول والعمل ... والحمد لله رب العالمين .

كتبها

محمد عبد الله أبو الفتح البيانوني

حلب - الجبيلة

التمهيد

ويشمل الحديث عن أمرين :

١ً - ضرورة نشر سيرة السلف .

٢ً - سبب اختياري سفيان الثوري .

. . .

١ً - ضرورة نشر سيرة السلف :

تتجلى لنا ضرورة نشر سيرة السلف الصالح في ناحيتين أساسيتين : ناحية عملية ، وناحية علمية .

أما الناحية العملية :

فلقد أشرت في المقدمة العامة عن حاجة الأمة المسلمة اليوم لسيرة سلفها ونشرها وتسليط الأضواء عليها ، وقد أجمع العلماء على عظم الأثر الصالح الذي تتركه في نفوس النشء دراسةُ تاريخ الآباء والأجداد ... فكيف بهم إذا

كانوا أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم في الصحابة ، وأمثال سعيد بن المسيب وعمر بن عبدالعزيز والحسن البصري وأبي حنيفة وسفيان الثوري ، ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله فيمن بعد الصحابة ... فإن في صفحات هؤلاء وأمثالهم قبسات من نور تهدي في الظلام ، ومعالم واضحة ترشد في المتاهات كسبوها من اقتدائهم بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وأما الناحية العلمية :

فهناك باعث آخر يدعونا إلى نشر آرائهم العلمية ، وبنات أفكارهم ، وما أنتجته قرائحهم من استنباط معاني القرآن الكريم والسنّة المشرّفة خدمة للإسلام والمسلمين ...

والعراق ـ منشأ سفيان ـ الذي بقي حوالي خمسة قرون عاصمة للإسلام ومعقلاً له ، تخرج فيه من الأئمة الأعلام مالا يُحصي عددهم ديوان جامع ، ولا تسع علومهم مئات المجلدات ...

ففي العراق ظهر إبراهيم النخعي وعلقمة وحماد ، وأبو حنيفة وأصحابه ، وابن ابي ليلى ، وسفيان الثوري

وابن المبارك وأحمد وابن معين وغيرهم كثير ... وحسبك تاريخ بغداد دليلاً على كثرتهم ومعرفة علو منزلتهم ...

وفيما سوى العراق ، وعدا مذاهب الأئمة الأربعة مذاهب مهجورة لعلماء أجلاء ، كمذهب الليث بن سعد - فقيه مصر وإمامها - والأوزاعي - إمام أهل الشام مدة قرنين - وابن جرير الطبري - شيخ المؤرخين والمفسرين - وغير هؤلاء كثير ، لاسيما إذا عددنا معهم أئمة الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما رحمهم الله جميعاً .

وإن أئمة أمثال هؤلاء لجديرون باحياء آثارهم الدفينة وإبراز آرائهم القيمة ، وإذا كان هؤلاء بهذه الكثرة فمن العقوق التغاضي عن نشر شذى سيرتهم وبث عبيرها وإشعاع نورها ...

وإذا كانت الأمم الحديثة تحيي ذكرى عظمائها بطرق مادية بعضها محرم كنصب التماثيل والأصنام ، فلم لانحيي ذكرى هؤلاء الأئمة الأعلام بما يخلد ذكرهم ، وينفع أمتهم ...!!

فإلى أصحاب الأقلام المؤمنة ، والأفكار النيرة ،

والداعوات المخلصة ، الدعوة الملحة بأن يمدوا أيديهم إلى بطون الكتب فيعرضوا لنا صفحات أمتنا المشرقة ورجالنا العظماء ، وينقبوا عن الكنوز الدفينة ، والعيون المكتومة ليحيوا بها جيلنا الجديد المتردد الحائر فيرى طريقه ويسدد خطاه ...

• • •

٢ - سبب اختياري سفيان الثوري رحمه الله :

بدافع من الحاجة الماسة لنشر سيرة السلف التي نوهت عنها سابقاً ، فكرت وانا أبحث عن موضوع للرسالة الجامعية عمن أكتب ، وسيرة من أفتتح ؟

فجال بخاطري الخلفاء الراشدون ، والعلماء العاملون من الأئمة الأربعة وغيرهم ... ولكن وفرة ماكتب عنهم وشهرة سيرتهم جعلتني أعدل عنهم رغبة في نشر من طويت سيرتهم وهم على مستوى عال من الكمال ، وما أكثر هؤلاء في أسلافنا !!!

فقلبت كتب الرجال وطبقاتهم أتنقل من عالم إلى عالم ، فعلقت بذهني أسماء كنت أراها في كل مضمار وتواجهني في أغلب الفنون ... وكان من أبرز هذه الأسماء اسم « **سفيان الثوري** » .

أفتح كتب الحديث : فأرى سفيان الثوري ، وما أكثر روايته والرواية عنه !!

وأنظر في ترجمته : فأرى أئمة الحديث يطلقون عليه ألقاباً نادرة : كقولهم : سفيان أمير المؤمنين في الحديث

أو سفيان محدث العرب ، فيعظم في عيني أمره .

وألمح بين أبواب الفقه أقوالاً عديدة لسفيان لاتقل منزلة عن أقوال الأئمة الأربعة وغيرهم ، وإذا به صاحب مذهب فقهي خاص له مقلدوه حتى أوائل القرن الخامس في المشرق ، وما بعده في المغرب ، وكانوا يعرفون (بالسفيانيين).

فقد جاء في ترجمة أبي بكر الدينوري في كتاب النجوم الزاهرة(١) مانصه : « وفيها أي سنة / ٤٠٥ / هـ توفي عبد الغفار بن عبد الرحمن أبو بكر الدينوري ، لم يكن ببغداد مفتٍ على مذهب سفيان الثوري غيره ، وهو آخر من أفتى بجامع المنصور على مذهب الثوري ، قلت : أي ابن تغري بردى ـ لعل ذلك كان بالشرق ، وأما بالغرب : فدام مذهب الثوري بعد هذا التاريخ عدة سنين » .

وقد نعته عدد من العلماء بأنه « فقيه العرب »(٢).

---

(١) أنظر النجوم الزاهرة (ج ٤ / ٢٣٨) . وشذرات الذهب (ج ١ / ٢٥٠ و ٢٥١) .

(٢) انظر تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم .

وهكذا التقيت مع سفيان الثوري في كتب التفسير التي تكثر النقل عن السلف ، وإذا به صاحب تفسير خاص سأتحدث عنه في الحديث عن علومه .

فشاهدت سفيان هنا وهناك ، وفي كل ميدان وفي كل مجال ،... ولا أنسى أن أذكر شهرته في التصوف ، فاذا ماقلبت كتب الطبقات ، وجدته في أولى طبقاتها ، وعلماً من أعلامها وإماماً يقتدي به غيره في الأخلاق والآداب ... فلما سئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن ورعه ، أخبر أن قدوته في ذلك سفيان .

وما أجمل قول ابن المبارك فيما رواه أبو نعيم بسنده عنه أنه قال :

« تعجبني مجالس سفيان الثوري ، كنت إذا شئت رأيته في الورع ، وإذا شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه ... »(١) .

فلم يكن أمامي بعد ذلك إلا سفيان الذي عشت معه أكثر من سنتين ألتي بآرائه المتفرقة في كتب الفقه

(١) الحلية (ج ٦/٣٥٨) .

والأدلة ، وببروزه الحديثي في كتب الحـــديث والرجال ، وبتصوفه السليم النقي في كتب الطبقات ، وكنت كلما اطلعت على جانب من جوانبه ، وعثرت على منقبة من مناقبـــه ، زادني ذلك تمسكاً به ، ونشاطاً في البحث عنه ، وخاصة حين علمت أنه ليس لسفيان الثوري ترجمة مفردة مطبوعة أو مخطوطة ، سوى ما أشارت إليه بعض المراجـــع بأن الامام ابن الجوزي كتب كتاباً في مناقبه لم أعثر عليـه ولا على مكانه فيما حولي من مكاتب ، وذكر الذهبي في « تذكرته » أنه اختصر هذا الكتاب . وهناك لابن ملول تأليف في زهده[1] .

ولم أجد إلا تراجم مطولة ومختصرة في كتب الرجال عن هذا الرجل العظيم ، وأوسع ترجمة له رأيتها في تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، وفي الحلية لأبي نعيم[2] .

(١) انظر كتاب الفكر السامي (ج ٢ / ١٤٦) لمحمد الحجوي المطبوع بفاس عام ١٣٤٥ هـ .

(٢) ولعل أدق ترجمة لسفيان وقفت عليها أثناء تهيئة هذا الكتاب للطبع للأستاذ امتياز علي عرشي محقق كتاب (تفسير القرآن الكريم للثوري) الذي تحدثت عنه في كلامي عن (علم التفسير عند الثوري) وذلك في الفصل الثاني من الباب الثاني .

ومما تجدر الاشارة إليه في هذا المقام : أنني اطلعت وأنا أهيء كتابي هذا للطباعة على رسالة بعنوان « سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث» لمؤلفها الدكتور عبد الحليم محمود ، طبعت في الكويت عام ١٣٩٠ هـ ، فاشتريته من إحدى مكتبات الرياض وطالعته واستفدت منه ـ جزى الله الاستاذ المؤلف كل خير ـ .

ولكنني مع ذلك لم أزل مقتنعاً بأنه لايغني كتاب عن كتاب ، وأنه من الحسن أن تتوافر الجهود على إبراز شخصية كهذه ، لتكتمل جوانب البحث ، وهذا مادعاني أن أتابع موضوع طباعة هذا الكتاب ، والله من وراء القصد.

ـ ـ ـ

الباب الأول

وهو في تاريخ حياته ، ويقع في ثلاثة فصول :

١ً - الفصل الأول : عصره السياسي والاجتماعي والعلمي .

٢ً - الفصل الثاني : نشأته وتشمل ولادته ، وأسرته ، وأقاربه ، وعقيدته ، وتنقلاته .

٣ً - الفصل الثالث : وفاته ، وحزن الناس عليه ، ورؤياهم له بعد موته .

الفصل الأول

عصره السياسي والاجتماعي والعلمي

أً - عصره السياسي[١] :

في السنة التي ولد فيها سفيان الثوري وهي سنة ٩٦ هـ تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك الأموي بعد الوليد ابن عبد الملك ، ولم تدم خلافته كثيراً ، فبعد أن قضى فيها سنتين وأشهراً توفي سنة ٩٩ هـ .

وتولي بعد ذلك - عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه الذي أصلح من الأمور ما أصلح وأعاد سيرة الخلفاء الراشدين وتوفي سنة ١٠١ هـ بعد أن دامت خلافته سنتين.

وخلفه بعد ذلك - يزيد بن عبد الملك - الذي تواصلت في عهده الثورات ضد الأمويين وأعلن - شوذب -

(١) المرجع في عصر سفيان فيما لا أشير إليه من نقل ، هو كتابا: تاريخ الاسلام السياسي ، ورسالة فاكهة الأنام في تاريخ خلفاء العرب والاسلام .

الخارجي الحرب عليهم وهزمهم هذا في عدة معارك . وفي عبد يزيد خرج عليهم يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مع عدد من إخوته الذين قاسى الأمويون منهم ماقاسوا ...

وبعد أن قضى يزيد في الخلافة أربع سنوات توفي عام ١٠٥ هـ وتولي بعده الخلافة ـ هشام بن عبد الملك ـ الذي دامت خلافته عشرين سنة تقريباً والذي عمل على إخماد الثورات القائمة .

وبعد وفاة ـ هشام ـ سنة ١٢٥ هـ ، تولي ـ الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ـ ولم تدم خلافته سوى سنة وشهرين وأيام حتى قتل .

وخلفه سنة ١٢٦ هـ ـ يزيد بن الوليد ـ مدة خمسة أشهر فقط ، ثم تولي ـ إبراهيم بن الوليد ـ الذي دامت خلافته سبعين يوماً ، ثم خلع .

وفي سنة ١٢٧ هـ تولي ـ مروان بن محمد ـ آخر الخلفاة الأمويين ، وكان هذا شديداً ضد أعدائه ، وثارت الفتن وتزايدت في عهده ، ونشطت الشيعة وبدأ سقوط الدولة الأموية إلى أن انتقلت بعده إلى العباسيين عام ١٣٢ﻫ .

فتسلم الأمر أولهم ـ أبو العباس السفاح عبد الله ـ

ودام في خلافته أربع سنين وتسعة أشهر حتى مات .

وتولى بعده - أبو جعفر المنصور - سنة ١٣٦ هـ ، ودامت خلافته اثنتين وعشرين سنة ، حيث توطدت دعائم الخلافة العباسية واستقرت ، وفي عهد هذا ومن يليه تظهر لنا حياة سفيان السياسية التي تواجه الحكام وتأمرهم وتنهاهم كما تظهر لنا في هذا العهد ملاحقة سفيان حتى وفاته ...

ثم تولي - المهدي - سنة ١٥٨ هـ ، وتوفي سفيان الثوري بعد ثلاث سنوات مضت من خلافة المهدي مختفياً منه سنة ١٦١ هـ رحمه الله تعالى . وبهذا ينتهي عصر سفيان السياسي الذي بدأ في القسم الثاني من خلافة الأمويين الذي كان عهد اضطراب وفتن وثورات ... وانتهى في القسم الأول من خلافة العباسيين الذي كان عهد تأسيس وتوطيد لحكمهم.

٢ - عصره الاجتماعي :

ويتمثل هذا العصر بالحكام والشعب :

أما الحكام : فقد كان لأغلب الأمويين المتأخرين نظرة التعصب للعرب ، النظرة المتطرفة التي تنظر إلى الموالي نظرة السيد للمسود ، والتي ولدت روح القومية في النفوس،

فانضم الموالي إلى صفوف أعدائهم ، وأعانوا الناقمين عليهم ، فنالت الخلافة الأموية منهم أشد الويلات والثورات ...

ولم يكن العدل رائدهم جميعاً في الحكم ، بل انتشر الظلم ، وكثرت الضرائب وجبيت الأموال ، وأغدق العطاء للأتباع والأعوان حتى وصل عند بعضهم إلى حد الاسراف. وجاء بعد ذلك عمر بن عبد العزيز فأصلح كثيراً من هذه الأمور وكان عهده عهد عدل ورحمة ورد للمظالم .

فتذمر الصالحون من تصرفات أولئك الأفـــراد ، وجابههم في ذلك العلماء العاملون أمثال سفيـان ، دون أن يخشوا في الله لومة لائم ، فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر . وستمر معنا نماذج من هذه المواقف المشرفة لسفيان.

كما أخذ الخلفاء في عهد سفيان يتشبهون بالملوك ، ويتباهون بالأبنية والقصور ، ولبس أرفع الثياب ، وتنويع الطعام ...

ولولا شيوع مثل هذه الأمور لما برز لنا في التاريخ عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كالبدر في الليـــلة الظلمـاء .

أما الشعب :

فلا ننسى قبل كل شيء أنهم من القرون الخيرة التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية في قوله : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم[1] ... » إذ أن عصر سفيان هو آخر عهد التابعين ، وقد أدرك منهم من أدرك ، وأول عهد تابعيهم الذين شملهم الحديث الشريف .

ولا يعني هذا : خلو المجتمع يوم ذاك عن أفراد ساءت سيرتهم ، وانحرفوا عن سير سلفهم الصالح ، فكثيراً مايحدثنا التاريخ عن أمثال هؤلاء في ذلك العهد ، كما يحدثنا عن الفئات الصالحة ، والعلماء العاملين أمثال سفيان ، الذين كان لهم مع الناس والحكام مواقف مشهورة ، ولا يكاد يخلو مجتمع من فساد ...

كما ينبغي أن لانفهم من ذلك أن هـذا المجتمع كان مجتمعاً فاسداً منحلاً في الدين والخلق ، فان الطبقة الصالحة في كل عصر تدرك جيلاً مضى وجيلاً نشأ ، فتقارن بينهما فترى البون شاسعاً فلا يسعها إلا التذمر من حال الناس ، والشكوى من إدبارهم وانحدارهم ، نرى ذلك جلياً في قول

(١) الحديث متفق عليه ، انظر فيض القدير للمناوي (ج٣/٤٩٧).

الحسن البصري رحمه الله حيث يقول : « لقد أدركنا أناساً لو رأيتموهم لقلتم عنهم مجانين – لزهدهم وصلاحهم وخوفهم – ولو رأوكم لقالوا : هؤلاء لايؤمنون بالله واليوم الآخر – أي لفتورهم عن الطاعة وإقبالهم على الدنيا – » .

فقد كان الناس طبقتين : طبقة صالحة كل الصلاح ، لاتفارق العلم وحلقاته ، وهي كثرة غالبة في الأمة وهي التي ظهر منها سفيان ، وأمثال سفيان ، فكونوا حلقات العلم والوعظ في كل مكان ...

وطبقة أخرى منحرفة :همها الدنيا وشهواتها ، باحثة عن رضاء الحكام وعطائهم ، غير مبالية بالتمسك بالفضيلة والأخلاق ، ولكنها الفئة القليلة التي لايخلو منها عصر من العصور ، ليظهر صلاح من صلح ، وفساد من فسد ...

٣ – وأما عصره العلمي :

فإن أكبر أثر في حياة سفيان الثوري هو عصره العلمي الذي نشأ فيه ، فقد كان عصره فاتحة لأزهى عصور العلم ، حيث تشعبت ميادين العلم وتنوعت ، وتوسعت العلوم بصورة عامة . وكان أيضاً عهد تضخم الفقه وتدوينه ،

وتدوين السيرة النبوية وأكثر العلوم الشرعية بصورة خاصة.

أما من حيث التفسير والحديث والفقه وسائر العلوم الشرعية ، فقد كان عهد تدوين وتأليف وكتـابة وجمـــع واجتهاد ، ساعد على هذا النشـاط العلمي انعزال كثير من العلماء العاملين إليه مبتعدين عن الفســاد والظلم ، فتفرغوا للعلم وحلقاته ، وعملوا فيه ليلهم ونهارهم ، فظهر النبـــوغ وكثر الانتاج ، وتكونت المذاهب الفقهية المتعددة ، وتنوعت المدارس العلمية ، كما نشط في ذلك العصر فقه الشيعة وغيرهم ...

فقد كان هذا العهد عهداً علمياً ذهبياً توسعت فيه الآراء العلمية ، وتشعبت ميادينها ، مما ملأ مئـات المجلدات الضخمة ، والموسوعات الكبرى ، وكانت خير ذخيرة تفتخر بها الأمة الاسلامية على مدى العصور ، وتحل بها مشاكلها، وتذعن لها وتكبرها دول الغرب وعلماء القانون ...

ومن حيث العلوم العقلية والكونية ، فقد كان عصر انتشار الثقافة اليونانية بين المسلمين ، حتى كانت ـ حرّان ـ مركزاً هاماً لها ، فاشتغل الناس بالعلوم العقلية والنقلية معاً. وتوسعوا في كلا المضمارين ، وذهبوا فيها كل مذهب ...

ومن ناحية أخرى : نشطت حركة الترجمة إلى العربية ،

فترجمت أكثر العلوم إليها ، وقد كان ـ خالد بن يزيد ـ من العلماء الذين أسهموا في هذا المضمار كل الاسهام، وكان له السبق ، فاطلع العلماء على علوم أجنبية عنهم ، فدرسوها وأتقنوها وزادوا عليها وأضافوا فيها ...

ولعل أكبر أثر في نشاط العلم هو اعتناء الخلفاء والحكام به ، فكنت ترى الملوك والخلفاء علماء ، يعملون فيه ويشجعون عليه ، ويكرمون أصحابه ...

فشجع الخلفاء الطب والكيمياء ، حتى إن الوليد بن عبد الملك أول من بنى المستشفى العظيم في بلاد المسلمين ، وفرغ له الاطباء ، وأغدق عليهم العطاء .

وكان ـ عمر بن عبد العزيز ـ يأمر بالعطاء للعلماء المتفرغين للعلم من بيت المال ، ليساعدهم على تفرغهم ، فقد كتب رسالة إلى والي حمص يقول له فيها :

« انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه ، وحبسوها في المساجد ، فأعط كل واحد منهم مائة دينار يستعينون بها على ماهم عليه من بيت المال[١] » .

---

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي (ج ١/٥١١) .

وما هذا إلا لأن - عمر بن عبد العزيز - كان عالماً فقيهاً محدثاً وشاعراً : حتى قيل فيه : كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة(١) .

وهكذا كان أغلب الملوك ، فكنت ترى المساجد دوراً للعلم وحلقاته ، ومجالس الخلفاء والحكام مجمعاً للعلماء يتدارسون ويتناظرون فيها ...

وليس أعظم وأنفع للعلم من أن تشجع الدولة على نهل موارده ، وتساعد على سلوك سبله ، والمضي في سبيله ..

وما أعدلنا إذا أطلقنا على عصر سفيان وما تلاه من عصور في ذلك القرن : - عصر العلم والعلماء - .

- - -

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي (ج ١/٣٢٥) .

الفصـل الثـاني

نشأة سفيان : وتشمل :

- ولادتـــه :

اختلفت كتب الرجال في بيـان سنة ولادة سفيـان الثوري ، فمنهم من يؤرخ ولادته سنة ٧٥ هـ أو ٧٧ هـ ، ومنهم من يؤرخها سنة ٩٥ أو ٩٦هـ ، ومنهم من يؤرخها سنة ٩٧ هـ .

والذي عليه أكثر الأقوال والأخبار - فيما رأيت - هو أن ولاده سفيان كانت سنة ٩٦ هـ التي توافـــق من التاريخ الميلادي سنة ٧١٦ م[١] . وقـد رجح بعضهم سنة ٩٧ هـ كما نص عليه الجزري في الغاية[٢] . ولقد كانت ولادته في الكوفة ، ونشأ فيها في أسرة صالحة تقية عالمة ...

- - -

(١) انظر الأعلام للزركلي (ج ١٥٨/٣) .

(٢) انظر مقدمة تفسير الثوري للأستاذ أمتياز علي عرشي ص ١١.

- مـــكانه :

عاش سفيان أول حياته في الكوفـة كما مر معنا ، ثم خرج منهـا سنة ١٤٤ هـ هرباً من أبي جعفر المنصور الذي راوده على تسلم القضاء ، وكان قد قضى في الكوفة ٤٨ عاماً .

ثم سكن في المدينة المنورة ومـكة المكرمة ، حتى أرسل المهدي في طلبه ، ولاحقه ملاحقة شديدة ، فانتقل سفيان إلى البصرة ، واختفى فيها ، وقضى بقية حياته هناك .

. . .

- أسرتـــه :

نشأ سفيان في أسرة صالحة ، تتألف من أفـراد لم يجمعهم كتاب أو بحث ، وإنما جمعتهم من الاستقراء الشديد لأخبار سفيان وحياته .

فظهر لي أن أسرته تتألف من أبوين وإخوة ، وأختان ولكل واحدة منها ولد ، وزوجة ، وولدين ، وابنة ، وعم .

وتظهر على هذه الأسرة علائم التقوى والصلاح والعلم، مما سنراه مفصلاً في محله إن شاء الله ...

. . .

أما تفصيل نشأته وأسرته فهي :

١ً - نسبه :

ذكره ابن خلكان في تاريخه بالشكل التالي :

« هو : أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي بن عبد الله ابن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان ابن ثور بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان الثوري الكوفي(١) » .

ونسبة الثوري : إلى كلمة - ثور - وهو : أبو قبيلة من مضر(٢) ، وذكر ابن النديم(٣) أنه كان يقال : في بني

(١) انظر تاريخ ابن خلكان (ج١/٢١٠) ، ومقدمة تفسير القرآن الكريم للثوري لمحققه امتياز علي عرشي ص ٩ .
(٢) القاموس المحيط (ج١/٣٨٤) .
(٣) الفهرست ص ٣٢٨ .

ثور ثلاثون رجلاً ليس منهم رجل دون الربيع بن خيثم ، وكلهم بالكوفة .

وهناك أشخاص اشتهروا - بالثوري - أشير إلى بعضهم ، منهم :

- أبو سعيد الثوري ، واسمه : عقيصا ، روى عن علي . وذكره ابن سعد في طبقاته .

- أبو محمد الثوري ، واسمه : عبد الله بن محمد بن هرون ، وذكره ابن النديم في الفهرست .

- والربيع بن خيثم الثوري. - والمنذر بن يعلى الثوري.

- وسعيد بن وهب الثوري ، وغيرهم ...

٢ - والده :

هو : سعيد بن مسروق ، المتوفى سنة ١٢٦ هـ ، ثقة بين المحدثين ، روى له الستة(١) .

وقال فيه ابن أبي حاتم(٢) : « روى عن أبي الضحى

---

(١) انظر التقريب في ترجمة والده .

(٢) انظر الجرح والتعديل (ج٢/٦٦) طبع حيدر آباد الدكن بالهند مطبوعات دار المعارف .

وإبراهيم التيمي ، والشعبي ، وعكرمة ، ومنذر الثوري ، وروى عنه ابنه سفيان ، وشعبة ، وأبو عوانة .

حدثنا عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول ذلك ، وسمعته يقول : هو ثقة ، وكان والد سفيان أحد شيوخ أبي حنيفة رضي الله عنه[١] .

ونقل ابن أبي حاتم أيضاً في ترجمته عن سفيان : أن أباه روى عن إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين أنه قال :

سعيد بن مسروق ثقة .

• • •

٣ ـ والدته :

لم أعثر على اسمها ، إلا أن هناك أخباراً تبين لنا فضلها ومكانتها ، وما لها من أثر حسن في توجيه سفيان هذا التوجيه العظيم للعلم والعمل معاً ، وما أعظم أثر الأمهات الصالحات في توجيه أولادهن !!!

---

(١) انظر (النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير) للامام اللكنوي .

روى الامام أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله بسنده عن وكيع(١) ، قال : قالت أم سفيان لسفيان :

« يابني أطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي » فكانت ـ رحمها الله ـ تعمل وتقدم له ليتفرغ للعلم .

وكانت والدته تتخوله بالموعظة والنصيحة ، قالت له ذات مرة ، كما روى الأمام أحمد أيضاً(٢) :

« يابني إذا كتبت عشرة أحرف ، فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك ، فإن لم تر ذلك ، فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك » .

فلا غرابة بعد هذا : أن نرى سفيان الثوري وصل إلى ماوصل إليه من العلم والعمل ، مادام قد تربى في مثل هذه الأسرة الكريمة العريقة بالتقى والصلاح ، وتغذى بلبان هذه الأم الرحيمة الناصحة التقية ...

٤ً ـ إخوته :

وقفت أثناء البحث على أخوين لسفيان :

---

(١) انظر كتاب الورع للامام أحمد .

(٢) » » » » » وانظر مقدمة تفسير الثوري ص ١٠

أحدهما : المبارك بن سعيد ، الذي كان من شيوخ الأصمعي اللغوي ، وكان أعمى ، روى له أبو داود والترمذي والنسـائي .

وقال عنه ابن حجر[١] : صدوق ، وترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ترجمة واسعة[٢] .

وثانيها : عمرو بن سعيد ، ذكر ابن حجر عنه أنه ثقة ، وروى له مسلم وأبو داود والنسائي . وكان صـالحاً تقياً ، زكاه سفيان بعد موته إذ قال على قبره[٣] : « رحمك الله ياأخي ، إن كنت لسليم الصدر للسلف ، وإن كنت لتحب أن تخفي علمك ـ أي لاتحب الرياسة » .

وذكر ابن النديم[٤] : أنّ له اختاً ، كان سفيـان قد جعل لها ولايتها على كل مايملك قبل وفاته .

وفي اسم ابنها روايتان ، وعلها أختان لسفيان ،

---

(١) انظر التقريب في ترجمة مبارك بن سعيد ، وتهذيب التهـذيب (ج٤/٨٢) .

(٢) انظر تاريخ بغداد (ج١٣/٢١٦ ـ ٢١٩) .

(٣) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٩ .

(٤) انظر الفهرست في ترجمة سفيان .

وقد ذكر ابن حجر اسم ابنها - سيف بن محمد - كما ذكر أبو نعيم[1] أن اسمه - علي بن حمزة - فإما أن يكونا إخوة لأم فقط ، أو يكون لسفيان أختان ، والله أعلم .

٥ - زوجتــــه :

هناك أخبار وقصص[2] تدل على نفور الثوري من الزواج ، خوفاً من تربيه الولد وهمومه !

إلا أنني رأيت في الحلية لأبي نعيم[3] قصة تدل على أنه كان متزوجاً من امرأة لم يذكر من هي ، وذكر أن سفيان أوصى بما بقي لها من صداق عليه قبل وفاته ، ولا ندري أهي أم سعيد ومحمد ولديه أم غيرها !!؟

وبهذا نتأكد من أن سفيان كان متزوجاً ، وما كان نفوره من الزواج أولاً إلا لظروف تعرض على الانسان وتزول ، لما يرى من فساد في المجتمع ...

---

(١) انظر الحلية (ج٧/٢٣) .

(٢) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٩٠ . وانظر مقدمة تفسير الثوري ص ٣٠ .

(٣) الحلية (ج٧/٦٢) .

وذكر صاحب مقدمة تفسير الثوري ، الأستاذ امتياز علي عرشي أن سفيان نكح مرتين في حياته .

٦ - أولاده :

ذكر ابن النديم[١] : أن سفيان لم يعقب بعده ، بل بل كان له ولد مات قبله .

وذكر أبو نعيم[٢] : أن له ابناً اسمه : سعيد ، مات قبله ، ولم يهتم بموته ، ولم يهلع ولم يجزع ، بل كان صابراً حامداً ، ويلاحظ أنه سماه باسم أبيه سعيد ، كما هي العادة الشائعة حتى هذه الأيام ...

وذكر أيضاً[٣] : أن له ابناً آخر اسمه _ محمد _ كان قد بلغ عشر سنين، ويظهر أنه غير سعيد، ولكننا لم نعرف شيئاً من بقية حياته ولعله مات صغيراً ، ولم يعقب أحداً بعده كما ذكر ابن النديم.

وذكر أبو نعيم[٤] : أن له ابنة ، لم نقف على اسمها .

• • •

---

(١) الفهرست ص ٣٢٨ .
(٢) الحلية (ج٦/٣٨١) .
(٣) الحلية (ج٧/٧٤) .
(٤) الحلية (ج٦/٣٧٣) .

٧ - عمه :

لم أعرف عنه شيئاً سوى أنه توفي في بخـــارى ، وذهب سفيان الثوري إلى بخارى لأخذ نصيبه من الارث من تركة عمه ، كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي(١) .

٨ - عقيدته :

لقد كان سفيان إماماً من أئمة أهل السنة والجماعة كما يظهر هذا من أقواله عند الحديث عن علومه .

إلا أن بعض العلمــاء نسبوه إلى التشيع عامة ، كما نسبه بعضهم إلى الزيدية(٢) خاصة .

ولعل السبب في هذا ماسيأتي معنـا من أن سفيان كان في أول نشأته يرى تفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً ، حيث نشأ في الكوفـة التي يكثر فيها التشيع ، فلما ارتحل إلى البصرة عـدل عن هذا الرأي ورجع إلى تفضيل أبي بكر وعمر عليه .

---

(١) تاريخ بغداد (ج٩/١٥٣) .

(٢) انظر مقدمة تفسير الثوري للأستاذ امتياز علي عرشي ص ١٦ .

روى أبو نعيم[١] أنه : كان رأي سفيـان الثوري رأي أصحابه الكوفيين يفضل علياً على أبي بكر وعمر ، فلما صار إلى البصرة رجع عنها ، وهـو يفضل أبا بكر وعمر على علي رضي الله عنهم جميعاً .

وهذا هـو الحق في عقيدة سفيان الذي سيأتي معنا مايؤكده إن شاء الله في الحديث عن علومه والله أعلم .

• • •

٩ - رحله وتنقلاته :

كانت تنقلات سفيان لأسباب ودوافع عديدة مختلفة ، منها ماكان للعلم وطلبه ، ومنها ماكان للتجارة ، وأكثرها هرباً من السلطان الذي كان يتتبعه أينما حل وارتحل ، بعداً منه عن المناصب العالية التي كانت تعرض عليه .

فبعد أن علمنا أنه نشأ بالكوفة مسقط رأسه ، وقضى فيها ٤٨ سنة عـرض المنصور عليه القضاء ، فهرب منه ، وتسلمه حينئذ شريك .

(١) انظر الحلية (ج٧/٣١) .

واتجه سفيان إلى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وقضى فيها أوقاته بالعلم والتعليم ، والعبادة والاكثار منها .

ويظهر من الاخبار أنه كان لسفيان ذهاب إلى الحج في صغره أيضاً لأن ابن أبي حاتم يروي أنهم رأوه في مكة يستفتى ولما يخط وجهه بعد ، ـ أي في شبابه وصباه ـ .

كما يذكر أبو نعيم (١) : أنه زار الطائف مصاحباً إبراهيم ابن أدهم ، وإبراهيم بن طهمان .

وأنه زار(٢) بيت المقدس ، واجتمع هناك بإبراهيم بن أدهم ، وله معه قصة أذكرها في قسم حياته العملية تحت عنوان ـ تواضعه ـ .

وروى أبو منصور الواسطي ـ كما نقل عنه أبو نعيم أن سفيان قدم إلى واسط ، وزاره هناك .

ويروي الامام أحمد(٣) : أن سفيان رحل إلى اليمن للتجارة ، وللقاء مَعْمَر ، كما يذكر النووي (٤) أنه ذهب

---

(١) الحلية (ج٦/٣٨٨) .
(٢) الحلية (ج٦/٣٦٧) .
(٣) انظر كتاب الورع ص ١٣ .
(٤) انظر تهذيب النووي (ج١/٢٤٥) .

إليها هرباً من المنصور .

وذكر أبو نعيم أن سفيان رحل إلى خراسان واجتمع فيها بـ : نصر بن سيار ، وأجَّرَ نفسه هناك ، وعمل .

وذهب مرة إلى بخارى لطلب ميراث عمه هناك كما مر بنا سابقاً ، وبينما سفيان مقيم في مكة والمدينة ، أرسل المنصور ـ وهو في طريقه إلى مكة ـ في قتل سفيان ، فذهب سفيان إلى البيت ـ الكعبة ـ وأخذ برتاجه ، وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فلم يدخلها أبو جعفر إلا ميتاً[1] .

ثم بلغه أن المهدي أرسل في طلبه هناك ، وبلغ البحث عنه أشده ، حتي ذكر أحد الرواة : أنه كان ينادى عليه في شوارع مكه والمدينة ، وخصصت جائزة ثمينة لمن يأتي به ، فأخذ سفيان يرحل إلى البصرة[2] ، حيث نزل في أحد بساتينها يعمل فيها بأجر حارساً على بستان نخيل ، فمر عليه شخص من المشارين ، فقال له : من أنت ياشيخ ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : أخبرني : أرطب البصرة أحلى أم رطب

---

(١) انظر تهذيب النووي (ج ٢٤٥/١) .

(٢) انظر الحلية (ج١٣/٧) .

الكوفة ؟ قال : أما رطب البصرة فلم أذقه ، ولكن رطب السابرية بالكوفة حلو . فقال : ماأكذبك من شيخ !! الكلاب والبر والفاجر يأكلون الرطب الساعـة وأنت تزعم أنك لم تذقه ؟ فرجع إلى العامل وأخبره بمـا قال ليعجبه ، فقال: ثكلتك أمك ، أدركه ، فإن كنت صادقاً فإنه سفيان الثوري فخذه لتتقرب به إلى أمير المؤمنين المهدي ، فرجع في طلبه فما قدر عليه ، وهرب سفيان من البستان واختفى في بيت من البيوت ، وأمضى بقية حياته في البصرة .

وقد كثرت تنقلات سفيان حتى تعجب الناس في عهده ، وسألوه عن ذلك بقولهم[١] : « إن للناس مأوى ، وللسبع مأوى ، ومالك مأوى تأوي إليه ؟ فقال سفيان للسائل :

أي رجل كان المغيرة بن مقسم الضبي ؟ قال : رجل صالح إن شاء الله ، قال : وأي الرجال كان إبراهيم النخعي ؟ قال : بخٍ بخٍ ، قال : فأي الرجال كان علقمة ؟ قال : لاتسأل . قال : فأي الرجال كان عبد الله بن مسعود ؟ قال : الثقة الصدوق ، فقال سفيان :

---

(١) انظر الحلية (ج٦/٣٧٤) .

حدثنا المغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : اقتحم على أهل الجنة نور في قبابهم كاد أن يخطف نوره أبصار القوم ، فاذا نور سن حوراء ضحكت في وجه وليها ، فما كنت لأدع هذا الخير أبداً لقولك ، ثم أنشأ سفيان يقول :

ماضَرَّ من كانت الفردوس مسكنه   ماذا تجرع من بؤسٍ وإقتار
تراه يمشي كئيباً خائفاً وجلاً   إلى المساجد يمشي بين أطمار

ثم أقبل على نفسه ، فقال :

يانفس مالك من صبرٍ على النار   قد حان أن تُقْبلي من بعد إدبار

- - -

الفصل الثالث

وفاة سفيان الثوري

لقد كانت نهاية سفيان الثوري نهاية مؤلمة ، حيث كان هذا العالم العظيم مختفياً مطارداً من السلطان وعماله ، فمات على هذه الحال في البصرة ليلاً[١] ، ولم يتمكن أصحابه وأحبابه من الصلاة عليه ، بل أخذوا يفدون إلى قبره غداة يوم وفاته .

وكانت وفاته في شعبان سنة ١٦١ هـ عن /٦٥/ سنة تقريباً ، والموافق سنة ٧٧٨ م[٢] . وقيل حول ذلك لخلاف في تاريخ الوفاة والولادة .

وقد غسله عبد الرحمن بن إسحق الكناني ، روى أبو نعيم عنه : أنه لما مات سفيان حمله إلى المغتسل ليغسله ، فحل إزاره ، فاذا فيها رقعة فيها أطراف الحديث .

---

(١) انظر الحلية (ج٦/٣٧٢) .
(٢) الأعلام للزركلي في ترجمة سفيان . وانظر الخلاف في ذلك في مقدمة تفسير الثوري ص ٣٠ .

كما حدث أبو أسامة[1] قال : « كنت بالبصرة حين مات سفيان ، فلقيت يزيد بن إبراهيم صبيحة ليلته التي مات فيها سفيان ، فقال لي : قيل لي في منامي : مات أمير المؤمنين ، فقلت للذي يقول في المنام : مات سفيان الثوري؟ قال : قد مات الليلة ، قال : فكان قد مات تلك الليلة ولم نعلم ».

فكأنه لما مات مختفياً ، أطلع الله أحبابه وأصحابه على وفاته بالرؤيا ليتفقدوه ويدفنوه رحمه الله تعالى .

ودُفِنَ الثوري في مقابر بني كليب بالبصرة وقت العشاء ، وكان أبو حاتم الرازي قد زار قبره هناك[2] .

رثاؤه وحزن الأئمة عليه :

توفي سفيان الثوري ، وفقدت الأمة بوفاته رجلها العظيم ، وقدوتها الكبرى ، فكان الحزن عليه عظيماً بين بين الأئمة العلماء وعامة الناس .

ويكفينا في هذا موقف ـ ابن المبارك ـ وهو الامام القدوة حيث يقول متأسفاً على سفيان :

---

(١) الحلية (ج٦/٣٨٢) .
(٢) الأنساب ص ١١٧ . انظر مقدمة تفسير الثوري ص ٢٩ .

« لِمَ لَمْ أطرح نفسي بين يدي سفيان ؟ ما كنت أصنع بفلان وفلان(١) ؟؟ » .

وروى أبو نعيم بسنده في الحلية عن بعض أصحاب سفيان قوله :

« مات سفيان بالبصرة ودفن ليلاً ، ولم تشهد الصلاة عليه ، وغدونا على قبره ، ومعنا ، جرير بن حازم ، وسلام ابن مسكين ، فتقدم جرير وصلى على قبره ثم بكى ، وقال :

إذا بكيتَ على ميت لمكرمة فابكِ الغداة على الثوري سفيانا

فظننت أنه هيأ أبياتاً يقولها ، فسكت ، فقال عبد الله بن الصباح :

أبكي عليه وقد ولّى وسؤدده وفضله ناضر كالغصن ريانا(٢)

وذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم(٣) قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبدالله بن وهب الحضرمي ، قال : قال أبو زياد الفقيمي رحمه الله تعالى :

---

(١) تاريخ بغداد (ج ٩/١٥٦) .
(٢) الحلية (ج٦/٣٧٢) .
(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٢٣ .

لقد مات سفيان حميداً مبرزاً ... على كل قارٍ مجنتة المطامع
يلوذ بأبواب الملوك بنيةٍ ... مبهرجة والزي فيه التواضع
يشمر عن ساقيه والرأس فوقه ... مبركة(١) فيها اللصيص المخادع
جُعلتُم فداءً للذي صان دينه ... وفرَّ به حتى حوته المضاجع
على غير ذنب كان إلا تنزهاً ... عن الناس حتى أدركته المصارع
بعيد من أبواب الملوك مجانباً ... وإن طلبوه لم تنله الأصابع
فعيني على سفيان تبكي حزينة ... شجاها طريدٌ نازح الدار شاسع
يقلب طرفاً لا يرى عند رأسه ... قريباً حميماً أوجعته الفواجع
على مثله تبكي العيون لفقده ... على واصل الأرحام والخلق واسع
فجعنا به حبراً فقيهاً مؤدباً ... بفقه جميع الناس قصد الشرائع

• • •

رؤيام له في حياته وبعد موته :

روى أبو نعم بسنده عن إبراهيم بن أيمن البجلي :

قال :

« رأيت سفيان الثوري في النام ولحيته حمراء صفراء ، فقلت : ماصنعت فديتك ؟ قال : أنا مع السفرة ، قلت :

---

(١) كذا في الأصل ، وفي تاريخ بغداد «قلنسوة» . (ج ٩/١٧٣) .

وما السفرة ؟ قال : الكرام البررة[١] » .

وقال مؤمل بن إسماعيل :

« رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت له : يا أبا عبد الله ماصنع بك ربك ؟ قال : غفر لي ، فقلت : يا أبا عبد الله لقيت محمداً ﷺ وحزبه ؟ قال : نعم[٢] » .

وحدث عثمان بن زائدة ، قال :

« رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة ، فاذا سفيان يطير من شجرة إلى شجرة ، وهو يقـــول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علـواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين[٣] » .

وحدث مصعب بن المقدام قال : « رأيت النبي ﷺ في النوم آخذاً بيد سفيان الثوري ، وهو يجزيه خـــيراً ويقول : حسن الطريقة[٤] » .

ويقول الوليد بن مسلم :

(١و٢و٣) الحلية (ج٦/٣٨٤) .

(٤) الحلية (ج٦/٣٨٥) .

« رأيت النبي ﷺ في المنام ، فعرضت عليه الناس[١]، فكأنه كرهه ، فقلت : يارسول الله بمن تأمر ؟ قال : عليك بسفيان الثوري[٢] » .

وحدث قبيصة[٣] أنه رأى سفيان في المنام ، فقال له: ما فعل بك ربك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي   هنيئاً رضائي عنك يابن سعيد
فقدكنت قواماً إذ أقبل الدجى   بعبرة مشتـاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته   وزرني فاني منك غير بعيد

وجميل مانقل عن الامام أحمد رحمـه الله أنه كان يعجبه من سفيـان الثوري أنه إذا قيل له : إنه رؤي في المنام ، قال :

« أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات[٤] » .

---

(١) كذا في الأصل ، ولعله (بعض الناس) فهو سقط مطبعي .
(٢) الحلية (ج٦/٣٨٣) .
(٣) الحلية (ج٧/٧٤) .
(٤) انظر كتاب : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث للدكتور عبد الحليم محمود ص ٦٣ .

الباب الثاني

وهو : في حياة سفيان العلمية ، ويقع في أربعة فصول :

الفصل الأول : طلبه العلم ونبوغه فيه ، وأساتذته وتلاميذه.

الفصل الثاني : علومه ، وتشمل :

١ ـ العقيدة .

٢ ـ التفسير .

٣ ـ الحديث .

٤ ـ الفقه .

٥ ـ الأخلاق .

٦ ـ الحساب .

الفصل الثالث : مؤلفاته وآثاره .

الفصل الرابع : ثناء الأئمة عليه .

الفصل الأول

طلبه العلم ونبوغه فيه ، وأساتذته وتلاميذه

١ - طلبه العلم :

نشأ سفيان في طفولته مندفعاً إلى تحصيل العلم والاستزادة منه ، وقد روى ابن أبي حاتم عن سفيان أنه قال :

« أنا في هذا الحديث منذ ستين سنة(١) » ، مع العلم أنه عاش /٦٥/ سنة ، ولا غرابة فانه نشأ - كما مر بنا - في أسرة تقية عالمة ، وشب في الكوفة حيث يكثر العلماء ...

فوالده - سعيد بن مسروق - كان أحد شيوخ الامام أبي حنيفة ، فتلقى سفيان عن والده العلم أول ماتلقاه حيث يعيش معه في أسرته ، فروى عنه .

وعندما شب وأراد العمل في الحياة ، أخبر عن نفسه أنه قال :

---

(١) التقدمة لابن أبي حاتم ص ٥٩ .

« لما أردت أن أطلب العلم قلت : يارب إنه لابد لي من معيشة ، ورأيت العلم يدرس ، فقلت أفرغ نفسي لطلبه ، قال : وسألت ربي الكفاية[١] » .

وعزم على طلب العلم حتى كفلت له والدته الانفاق عليه كما مر بنا في الحديث عنها أنها قالت : يابني ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي ، فأخذ يتلقى العلم عن شيوخه المتعددين ، وعن كل من يحمل علماً أو خبراً ...

وكان كثير الاهتمام في طلب العلم ، ذكر أبو نعيم : أنه كان إذا لقي شيخاً سأله : هل سمعت من العلم شيئاً ؟ فان قال : لا ، قال : لاجزاك الله عن الاسلام خيراً[٢] .

ومن مظاهر اهتمامه بالعلم ، أنه كان يقول : « ينبغي للرجل أن يكره ولده على طلب الحديث ، فانه مسئول عنه[٣] » .

وقد تابع سفيان العلم وطلبه إلى آخر أنفاسه ، فطلبه من المهد إلى اللحد ، وما أروع ماذكره أبو نعيم بسنده عن

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٧٠) .
(٢) الحلية (ج ٦/٣٦٥) .
(٣) « (ج ٦/٣٦٥) .

فرقد - إمام مسجد البصرة - أنهم دخلوا على سفيان في مرض موته ، فحدثه رجل بحديث فأعجبه ، وضرب سفيان يده إلى تحت فراشه ، فأخرج ألواحاً فكتبه ، فقالوا له : على هذه الحال منك ؟! فقال : إنه حسن ، إن بقيت فقد سمعت حسناً ، وإن مت فقد كتبت حسناً[١] » .

ولم يكن اهتمام سفيان بالعلم مقصوراً على طلبه ، بل كان يعمل به ويحرص على إشاعته بين الناس والدعوة إليه .

روى أبو نعيم أنه كان يقول :

« ليس عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم »

وكان يقول : « لانزال نتعلم العلم ماوجدنا من يعلمنا[٢] » .

وكان يقول : « لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم » .

ويقول : « لو أني أعلم أن أحداً يطلب الحديث بنية لأتيته في بيته حتى أحدثه [٣] .

---

(١) الحلية (ج ٧/٨٤) .
(٢) » (ج ٦/٣٦٣) .
(٣) » (ج ٦/٣٦٦) .

وما كان طلب العلم عنده إلا للعمل به ، والاستزادة من خشية الله سبحانه لأنه « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فهو القائل :

« إنما يطلب العلم ليتقى الله به ، فمن ثم فضل ، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء[١] . وكان يقول : « ليس طلب العلم فلان عن فلان ، إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل[٢] » .

• • •

٢ - نبوغه العلمي :

هناك أخبار كثيرة تظهر لنا نبوغ سفيان الثوري في العلم والفهم ، وهو فتى حدث السن ، حيث ذاع اسمه بين الناس مع كثرة العلماء في عهده ، فتكاثرت عليه الوفود طالبة رأيه وعلمه ، وقاصدة فتواه وهو فتىً لم ينبت شعر وجهه بعد ...

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الوليد بن مسلم . قال :

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٦٤) .
(٢) « (ج ٦/٣٧٠) .

« رأيت سفيان الثوري بمكة يُستفتى ولما يخط وجهه بعد[1] » .

وروى أبو نعيم أيضاً بسنده عن أبي المثنى ، قال :

« سمعت الناس - بمروِ - يقولون : قد جاء الثوري... فخرجت أنظر إليه فاذا هو غلام قد بَقَل وجهه[2] » .

كما روى عن محمد بن عبيد الطنافسي ، قال :

« لا أذكر سفيـان الثوري إلا وهو يفتي ، أذكر منذ سبعين سنة ، ونحن في الكتّاب تمر بنا المرأة والرجل فيسترشدوننا إلى سفيان يستفتونه ويفتيهم[3] ... » .

وقد تفرس به أساتذته النبوغ ، ومما يشير إلى ذلك قول سفيان عن نفسه : « كنت آتي حمـاد بن أبي سليمان فقال : إن في هذا الفتى مصطنعاً[4] » .

وما هي إلا سنوات وإذا بسفيان يصبح العالم العظيم ،

---

(١) التقدمة ص ٥٦ .
(٢) الحلية (ج ٦/٣٦٠) وبقل وجهه : أي نبت شعر وجهه ...
(٣) الحلية (ج ٦/٣٥٧) .
(٤) التقدمة ص ٨٤ .

والمرجع الكبير يرجع إليه في شتى الأمور والمسائل .

وهذا هو ابن المبارك يقول : « كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله ، فكأنما أغتمسه من بحر » ، وكان يقول : « ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان(٢) ».

وحدث أخوه مبارك بن سعيد قال : « رأيت عاصم ابن أبي النجود ، يجيء إلى سفيان يستفتيه ويقول : أتيتنا ياسفيان صغيراً ، وأتيناك كبيراً(٢) » .

وقد شهر سفيان بنبوغه وسعة علمه بين العلماء ، روى الخطيب في تاريخ بغداد بسنده عن الامام أحمد أنه قال : ألقى أبو إسحاق فريضة فلم يضعوا فيها شيئاً ، فقال : لو كان الغلام الثوري فصلها الساعة ، إذ أقبل سفيان ، فقال له : ماتقول في كذا وكذا ؟ قال سفيان : أنت حدثتنا عن علي بكذا وكذا ... والأعمش حدثنا عن ابن مسعود بكذا وكذا ...، وفلان حدثنا فيها بكذا وكذا ... قال أبو إسحاق : كيف ترون من ساعة فصلها !! ألا تكونون مثله(٣) ؟ » .

---

(١) التقدمة ص ٥٧ .

(٢) الحلية (ج ٦/٣٥٧) .

(٣) تاريخ بغداد (ج ٩/١٦٢) .

إلى غير ذلك من أخبار تصور لنا سفيان الثوري نابغة كبيراً يندر وجود مثله في العصور ...

• • •

٣ - أساتذته :

إن كثرة شيوخ سفيان ، وعظم مكانتهم لتدلنا بشكل واضح على اهتمامه بطلب العلم وتلقيه عن كبار علماء عصره ... فكان لايترك أحداً إلا ويسأله ويطلب الاستفادة منه ، وقد مر بنا سابقاً أنه كان لايمر بشيخ إلا ويسأله عما معه من أخبار ، فان قال لايوجد عنده شيء ، قال سفيان : لاجزاك الله عن الاسلام خيراً .

وأول أساتذة سفيان - والده - سعيد بن مسروق الذي تحدثنا عنه في بحثنا عن أسرة سفيان ، فقد روى عنه سفيان بعض الأخبار .

وإن من أبرز شيوخه في الحديث - الأعمش - الذي كان سفيان أعلم الناس بحديثه ، كما سيأتي معنا إن شاء الله .

وإن من العسير علينا إحصاؤهم لكثرتهم وشيوعهم ،

وسأكتفي هنا بما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه معدداً أساتذته ، ومنهم[١] :

« أبو إسحق السبيعي - وعمرو بن مرة - ومنصور ابن المعتمر - وسلمة بن كهيل - وحبيب بن أبي ثابت - وعبد الملك بن عمير - وأبو حصين - وإسماعيل بن أبي خالد - وحصين بن عبد الرحمن - وأيوب السختياني - ويونس بن عبيد - وسليمان التيمي - وعاصم الأحول - وعمرو بن دينار - وعبد الله بن دينار - وأبو الزناد - والعلاء بن عبد الرحمن - وصالح مولى التوءمة - وسهيل ابن أبي صالح - وخلق غير هؤلاء ... » .

• • •

٤ - تلامذته :

إن كانت هناك صعوبة في إحصاء أساتذة سفيان ، فإن هذه الصعوبة أكثر وأكثر في إحصاء تلامذته والرواة عنه...

إذ أن مئات من العلماء ملؤوا كتب الحديث والفقه بالرواية عن سفيان ، وفي مختلف العلوم ...

(١) تاريخ بغداد (ج ١٥٢/٩) .

وأكتفي هنا بذكر عدد من البارزين بالرواية عنه، ونقل أخباره، واتباع مجالسه ومذهبه، وقد ذكر الخطيب البغدادي في تاريخه عدداً منهم[١]، مثل :

محمد بن عجلان ـ ومعمر بن راشد ـ والأوزاعي ـ وابن جريج ـ ومحمد بن إسحاق ـ ومالك ـ وشعبة ـ وابن عيينة ـ وزهير بن معاوية ـ وإبراهيم بن سعيد ـ وسليمان بن بلال ـ وأبو الأحوص سلام بن سليم ـ وحماد ابن سلمة ـ وعبثر بن القاسم ـ وفضيل بن عياض ـ وزائدة ابن قدامة ـ ويحي بن سعيد القطان ـ وعبد الرحمن بن مهدي ـ ووكيع ـ وعبد الله بن المبارك ـ وعبيد الله الأشجعي الذي ذكر أبو نعيم عنه : أنه روى عن سفيان /٣٠/ الف حديث[٢] ـ ومحمد بن يوسف الفريابي ـ وأبو نعيم (الفضل ابن دكين) ـ وقبيصة بن عقبة ـ وغيرهم. وكذلك ـ علي ابن المديني ـ ومحمد بن الحسن ـ وجابر الجعفي الذي سمع من سفيان /١٠/ آلاف حديث[٣].

(١) تاريخ بغداد (ج ١٥٢/٩) .
(٢) الحلية (ج ٣٦٨/٦) .
(٣) تاريخ بغداد (ج ١٦٣/٩) .

الفصل الثاني

علومه

مقدمة عن علومه :

مر بنا سابقاً قول عبد الله بن المبارك : « تعجبني مجالس سفيان الثوري ، كنت إذ شئت رأيته في الورع ، وإذا شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه[1]... ».

فلم يكن سفيان كالعلماء المتأخرين الذين انحصروا بعلم دون آخر ، وفن خاص من الفنون ، فيبرزون فيه دون غيره ، وإنما كان ذا شخصية متعددة الجوانب ، جامعة لأنواع كثيرة من العلوم والفنون ، ومبرزة في كل منها ...

فاذا مانظرت إلى أقواله في العقيدة ، وجدتها الآراء السهلة الواضحة ...

وإذا ماقلبت كتب التفسير ، وجدته المفسر الكبير ...

وإذ مانظرت إليه في الحديث والسنة ، وجدته كما قال عنه علماؤها : « أمير المؤمنين في الحديث » .

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٥٨) .

وإذا مانظرت إليه في الفقه ، وجدته صاحب مذهب سفياني خاص ...

وإذا مانظرت إليه في العلوم العقليـــة والفكرية ، وجدته المفكر والحسابي البارع ...

وسأعرض - إن شاء الله - في هذا الفصل إلى غيض من فيض ، وقليل من كثير من علومه وآرائه ، مما يكون بمثابة مفتاح لمن أراد التوسع في هذا المضمار ، وإطاراً عاماً حول هذه الشخصية العظيمة بما يناسب الرسالة وموضوعها ...

مشيراً إلى أنني سوف أتبع في ذكر علومه ترتيباً خاصاً حسب مكانة العلم ومنزلته بين العـــلوم ، لا حسب الشهرة فيه لسفيان ... مبتدأً بعـــلم العقيدة ، فالتفسير ، فالحديث ، فالفقه ، فغيرها ...

العقيدة

عاش سفيان الثوري في جو انتشرت فيه البدع والفرق ، فمن حوله المرجئة ، والقدرية ، والشيعة ...

فكان صريحاً في بيان عقيدته كل الصراحة ، موضحاً موقفه من هؤلاء وهؤلاء ... مما سأعرض له تفصيلاً إن شاء الله .

ومما يؤكد لنا سنية سفيان ، مارواه أبو نعيم بسنده عنه : « أنه قال ليوسف بن أسباط : يايوسف ، إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة ، فابعث إليه بالسلام ، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب صاحب سنة فابعث إليه بالسلام فقد قل أهل السنة والجماعة[1] ... » .

ومما رأيت من أقواله ومواقفه في العقيدة :

أن الايمان عند سفيان : إقرار وعمل ، فقد روى أبو نعيم بسنده عنه أنه قال : « عليكم بما عليه الحمالون والنساء في البيوت ، والصبيان في الكتاب من الاقرار والعمل[2] » .

---

(١) الحلية (ج ٧/٣٤) .
(٢) » (ج ٧/٣٠) .

كما يرى أن الاسلام يدل على مسماه ، ولا حاجة للتوغل في تعريفه ، فعندما جاءه أخوه مبارك يسأله قال : قالوا : ياأبا عبدالله لايزال قوم يسألون عن الاسلام ماالاسلام ؟ قال له سفيان :

« إذا غدوت إلى السوق فانظر إلى أدنى حمال فاسأله عنه ، فاذا أخبرك عنه فهو ذاك[١] » يريد بذلك المعنى القريب المتبادر إلى الأذهان .

وكان يرى أن الاسلام والايمان شيء واحد ، فيقول ذلك ويقرأ قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »[٢] .

وكان يقول : « الصلاة والزكاة من الايمان ، والايمان يزيد وينقص ، والناس عندنا مؤمنون مسلمون ، ولكن الايمان متفاضل ، وجبريل أفضل إيماناً منك[٣] » .

---

(١) الحلية (ج ٧/٢٨) .
(٢) الآية ٣٥ـ٣٦ من سورة الذاريات ، راجع الحلية (ج٧/٣٤)، وانظر تفصيل ذلك في « جامع العلوم والحكم » للحافظ ابن رجب (ص ٢٣) وما بعدها .
(٣) الحلية (ج ٧/٣٣) .

ويقول : الايمان كالسروال : إذا شئت لبسته ، وإذا شئت خلعته .

وكان يرى قدم القرآن الكريم وأزليته ، فيقول في ذلك:

« من زعم أن ـ قل هو الله أحد ـ مخلوق ، فقد كفر بالله عز وجل[١] » .

ومن أقواله في العقيدة :

« من كره أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله ، فهو عندنا مرجىء » ، ويقول :

« أرج كل شيء مما لاتعلم إلى الله ، ولا تكن مرجئاً ، واعلم أن ماأصابك من الله ولا تكن قدرياً[٢] » .

وكان يجري نزول الله عز وجل الوارد في الأحاديث كما جاء بلا كيفية ولا تعرض لتأويل ـ كما هو مذهب جمهور السلف الصالح[٣] ـ .

---

(١) الحلية (ج ٧/٣٠) .
(٢) » (ج ٧/٣٢) .
(٣) نيل الأوطار للشوكاني (ج ٣/٦٣) .

وسفيان لايتحكم في أمور العباد ومآلهم ،فيكل أمرهم إلى الله ، ويأخذ بالظاهر ، ويسأل الله لهم السلامة والنجاة ، فمن قوله :

« الناس عندنا مؤمنون في النكاح والطلاق والأحكام، فأما عند الله فلا ندري ـ نحن أهل الذنوب ـ »[١] .

ويقول :

« نسمع التشديد فنخشى ، ونسمع اللين فنرجوه لأهل القبلة ، ولا نقضي على الموتى ، ولا نحاسب الأحياء ، ونكل مالا نعلم إلى عالمه ، ونتهم رأينا لرأيهم[٢] .

موقفه من أهل البدع :

١ ـ موقفه من المرجئة[٣] :

يقول سفيان : « خالفتنا المرجئة في ثلاث : نحن

---

(١) الحلية (ج ٢٦/٧) .
(٢) » (ج ٢٩/٧) .
(٣) المرجئة : طائفة نسبت إلى الارجاء بمعنى التأخير ، وهو تأخير العمل عن الايمان ، وافترقت إلى فرق عديدة . انظر في ذلك كتاب الفرق بين الفرق للاسفرائيني ص ٢٠٢ ، وغيره ...

نقول : الايمان قول وعمل ، وهم يقولون : الايمان قول بلا عمل ، ونحن نقول : يزيد وينقص ، وهم يقولون : لايزيد ولا ينقص . ونحن نقول : نحن مؤمنون بالاقرار ، وهم يقولون : نحن مؤمنون عند الله(١) » .

وكان سفيان يبتعد عنهم ولا يصلي عليهم ، روى أبو نعيم بسنده : « أنه لما مات عبد العزيز بن أبي رواد ، وحمل ووضع عند باب الصفا ، صفّ الناس وجاء الثوري ، فقال الناس : جاء الثوري ، جاء الثوري . حتى خرق الصفوف والناس ينظرون إليه ، فجاوز الجنازة ولم يصل عليه لأنه كان مرجئاً(٢) » .

كما كان يحذر منهم ولا يكتب عنهم ، فقد أخبر عن نفسه : أنه لما قدم الريّ وعليها ـ الزبير بن عدي ـ فكتب عنه خمسين حديثاً ، ثم مر بجرجان وبها ـ جوّاب التيمي ـ فلم يكتب عنه ، وسئل أبو نعيم : لِمَ لَمْ يكتب عنه ؟ قال : لأنه كان مرجئاً .

• • •

(١و٢) الحلية (ج ٧/ ٢٩) .

٢ً ـ موقفه من القدرية[1] :

فقد كان سفيان يحذر القدرية كحذره من غيرهم من أهل البدع والأهواء .. وكان يقول :

« واعلم ما أصابك من الله ولا تكن قدرياً[2] » .

حتى كان يرى عدم جواز الاقتداء بهم في الصلاة ، روى أبو نعيم أنه قيل لسفيان : رجلٌ يكذب بالقدر أأصلي وراءه ؟ قال : لاتقدموه ، قال : هو إمام أهل القرية ليس لهم إمام غيره ؟! قال : لاتقدموه لاتقدموه وجعل يصيح[3] » .

وكان يحذر في الرواية عنهم ، روى ابن أبي حاتم : أن سفيان سئل عن ـ ثور بن يزيد الشامي ـ فقال : خذوا عنه ، واتقوا قرنَيْه ـ يعني أنه كان قدرياً[4]ـ .

• • •

(١) القدرية : هي طائفة جحدت القدر ، بمعنى أن الناس يقدرون على أكسابهم دون دخل لصنع الله وتقديره ، قال في القاموس : والقدرية جاحدوا القدر ، انظر الفرق بين الفرق للاسفرائيني ص ١١٥ .

(٢) الحلية (ج ٧/٣٢) .

(٣) « (ج ٧/٢٦) .

(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٧٤ ، والتهذيب في ترجمة (ثور ابن يزيد) .

٣ - موقفه من الشيعة :

موقف سفيان الثوري من - علي رضي الله عنه - هو موقف أهل السنة والجماعة ، فانه يفضل عليه أبا بكر وعمر ، ولكنه لاينقصه حقه ...

إلا أن أبا نعيم وغيره رووا أنه كان يرى غير ذلك ، ولكنه عاد إلى الصواب واستقر رأيه عليه :

قال أبو نعيم :

« كان رأي سفيان الثوري رأيَ أصحابه الكوفيين ، يفضل علياً على أبي بكر وعمر ، فلما صار إلى البصرة ، رجع عنها وهو يفضل أبا بكر وعمر على علي[١] - رضي الله عنهم جميعاً - .

ولعل هذا التحول في موقف سفيان يفسر لنا اختلاف الروايات عنه في ذلك ، إذ وصفه بعضهم بأنه شيعي ، ويراه آخرون بأنه زيدي[٢] ...

إلا أن سفيان أصبح يتشدد في التمسك برأيه الأخير ،

(١و٢) الحلية (ج ٣١/٧) والطبري في الذيل المذيل ص ١٠٥ ، انظر مقدمة تفسير الثوري ص ١٦ .

ويدعو إليه ، ويرى لزومه ، ويقول :

« منعتنا الشيعة أن نذكر فضائل علي » - أي : لئلا يتوغل الناس في التشيع له ، وكراهية الصاحبين رضي الله عنهم أجمعين .

وكان يقول :

« من قدَّم علياً على أبي بكر وعمر ، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وأخشى أن لاينفعه مع ذلك عمل[١] » .

ومن قوله أيضاً :

« من قال عليٌّ أحق بالولاية من أبي بكر وعمر ، فقد خطأ أبا بكر وعمر وعلياً والمهاجرين والأنصار[٢] .. » .

وكان سفيان حكيماً معالجاً لداء التشيع ، روى أبو نعيم أنه كان - نعمَ المداوي - إذا دخل البصرة حدث بفضائل علي ، وإذا دخل الكوفة حدث بفضائل عثمان[٣] » .

وكان يقول : « إذا كنت في الشام فاذكر مناقب

---

(١) الحلية (ج ٢٧/٧) .
(٢) » (ج ٣١/٧) .
(٣) » (ج ٢٧/٧) .

علي ، وإذا كنت في الكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر[١] » .

وروى عنه أيضاً أنه كان يقول : « لا يجتمع حب عثمان وعلي إلا في قلوب نبلاء الرجال[٢] » .

وقد ذكر أبو نعيم : أن سفيان الثوري : ذُكِرَ عند عاصم بن محمد ـ فذكروا مناقبه حتى عدوا خمس عشرة منقبة ، فقال : فرغتم ؟ إني لأعرف فيه فضيلة أفضل من هذه كلها : سلامة صدره لأصحاب محمد ﷺ[٣] » .

• • •

٤ ـ البدع وأقواله فيها :

يقول سفيان :

« البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، المعصية يتاب منها ، والمعصية لا يتاب منها[٤] » .

---

(١) الحلية (ج ٢٧/٧) .
(٢) « (ج ٣٢/٧) .
(٣) « (ج ٢٧/٧) .
(٤) « (ج ٢٦/٧) .

ويقول :

« من أصغى سمعه إلى صاحب بدعة ، فقد خرج من عصمة الله تعالى[١] » .

ويقول :

« لايستقيم قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة[٢] » .

ويقول :

« إذا أحببت الرجل في الله ، ثم أحدث حدثاً في الاسلام فلم تُبْغِضْه عليه ، فلم تحبه في الله[٣] » .

إلى غير ذلك من أقوال عديدة تبين لنا نفور سفيان من البدع ، وتنفيره منها ومن أصحابها ...

- - -

(١) الحلية (ج ٧/٢٦) .
(٢) « (ج ٧/٣٢) ، و « لسان الميزان » (١/١٥٠) وأصله لابن مسعود رضي الله عنه ، أسنده إليه ابن أبي الدنيا كما في « حاشية العُدّة » (١/٧٠) للصنعاني .
(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٩٠ .

التفسير

١ - معرفته بالقرآن الكريم وتفسيره :

إن أقوال سفيان الثوري في التفسير ، وما نقل عنه فيه ، وأخبر به عن نفسه ، يظهر لنا مكانة سفيان التفسيرية ، وسعة علمه بالقرآن الكريم ...

فكثيراً ما كان سفيان يقول لمن حوله من الناس :

« سلوني عن القرآن وغير ذلك من العلوم » ، كما روى ابن أبي حاتم عنه : أنه قال : « سلوني عن المناسك والقرآن فاني بهما عالم[١] » .

وحدثنا تلميذه - وكيع - أن سفيان كان يصحح تفسير ابن أبي نجيح[٢] » .

ويقول عبد الرحمن بن مهدي :

« كان سفيان يأخذ المصحف فلا يكاد يمر بآية إلا

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٧ .

(٢) » » » ص ٧٩ .

فسرها ، فربما مر بالآية فيقول : أي شيء عندك في هذه الآية ؟ فأقول : ماعندي فيها شيء ، فيقول : تضيع مثل هذه لايكون عندك فيها شيء[1] !! » .

. . .

٢ - طريقته في التفسير :

لقد سلك سفيان في تفسيره طريقة أسلافه السابقين الذين اعتمدوا على الآثار الثابتة في ذلك ، دون محاولة لتفسير الباقي بآرائهم ، فكانوا لايفسرون من الآيات إلا ماحتاج إلى تفسير ، ولا يتعرضون للكلام فيه إلا حيث يعرض الاشكال فيوضحونه بما ثبت عندهم من أخبار ...

وإلى هذا يشير مارواه ابن أبي حاتم عن وكيع أنه قال:

« كان سفيان لايعجبه هؤلاء الذين يفسرون السورة من أولها إلى آخرها مثل الكلبي[2] » .

كما قال في مكان آخر : « ويعجبه من التفسير ماكان حرفاً حرفاً[3] » .

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٦ .
(٢و٣) » » » ص ٧٩ .

وقد قال الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود معللاً هذا الاتجاه :

« وإذا فسر الانسان القرآن كلمة كلمة ، وآية آية ، وسورة سورة على هذا النسق الحالي فقد قيد القرآن - في وهمه وفي وهم من تبعه - بفكرته ، بثقافته ، بعقليته ، بهواه إن كان صاحب هوى .

وما من شك في أن أسلوب القرآن يتحكم في المفسر ولكن المفسر مهما حاول أن يستجيب إلى أسلوب القرآن فانه يجد مجالاً للتأويل حتى يصل إلى مايراه - بحسب مستواه - أنه حق ... ثم قال :

ومن أجل هذه النظرة ، ومن أجل ترك أبواب الالهامات يوحيها القرآن كل يوم لقارئه ، لم يفسر رسول الله ﷺ القرآن كلمة كلمة ، وآية آية ، وسورة سورة ، وإنما هي كلمة من هنا وآية من هناك بحسب الظروف والمقتضيات ، وانظر مثلاً كتاب التفسير في صحيح البخاري أو في صحيح مسلم أو في غير ذلك من كتب الصحاح فستجد أن تفسير رسول الله ﷺ إنما هو على ماذكرنا ، ولم يحاول كبار الصحابة تفسير القرآن الكريم على الوضع

المألوف عنـــدنا الآن ...(١) » .

ولعل وقوف القارىء على بعض أقواله في التفسير ، أو على تفسيره كله ، يؤكد له هذه الطريقة التي سلكها سفيان في تفسير القرآن ، وأنها كانت مناسبة لعصره كل المناسبة ...

ولعل بُعد المسلمين ـ اليوم وفي العصور المتأخرة ـ عن معاني القرآن ، وضعف فهمهم للسان العربي المبين جعـــل العلماء يعدلون عن هذه الطريقة التفسيرية إلى التفسير الكامل ففسروه من أول حرف لآخر حرف ...

٣ ـ آثاره في التفسير :

لم أقف أثناء بحثي عن سفيان على آثار خاصة له في التفسير ، سوى بعض الآراء المتفرقة ، والروايات المعدودة من هنا وهناك .

ولكنني وأنا أهيء رسالتي هذه للطبع أتحفني بالاطلاع على تفسير الثوري فضيلة أستاذي الجليل الشيخ عبد الفتاح

(١) انظر كتابه (سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث) ص١٢٥ وص ١٢٦ .

أبو غدة ، وأطلعني على نسخته الخاصة به في الرياض ـ فعكفت على دراسته أياماً ـ جزاه الله عني كل خير ـ .

ولقد قام بتحقيق هذا التفسير الكريم الأستاذ الفاضل: امتياز علي عرشي ـ مدير مكتبة رضا ، رامبور ، الهند ، وحققه تحقيقاً وافياً وراجع نصوصه ، وزينه وذيله بفهارس عديدة مفيدة ، وأخرجه للناس في حلة قشيبة والحمد لله ، فكان له الفضل الكبير في إحياء جانب هام من آثار هذا الامام الجليل ، ـ جزاه الله عن الاسلام كل خير ـ وقد طبع هذا الكتاب باسم « تفسير القرآن الكريم » للامام أبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي وذلك عام /١٣٨٥/ هـ بإعانة وزارة المعارف الهندية ، وذلك في مجلد يقارب /٥٠٠/ صفحة[١] .

وسأكتفي في هذا المقام بعرض نماذج لأقواله في التفسير اخترتها من كتاب تفسير الثوري ، لتظهر للقارىء الكريم جوانب طريقته التفسيرية ، وإن كان لايغني في هذا المقام إلا الاطلاع على هذا الكتاب القيم بكامله ...

---

(١) وهذا التفسير للامام الثوري ذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » (١/٤٤٤) فقال : « تفسير الثوري ذكره الثعلبي » .

فمن أقواله في التفسير :

قوله وهو يتحدث عن الآيات الأولى من سورة البقرة:

« نزلت أربع آيات من أول البقرة في نعت المؤمنين وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين[١]».

وقال في قوله عز وجل « وقودها الناس والحجارة» أي : حجارة من كبريت ، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه[٢] .

وعنه في قوله تعالى : « وأتوا به متشابهاً » قال : لونه واحد ، مختلف طعمه[٣] . وعنه في قوله تعالى : « الصابئين » قال : بين اليهود والمجوس ، لادين لهم[٤] . وعنه في قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » قال : اليهود ، وهو قول ابن عباس[٥] . وعنه في قوله

(١) ص ١ من تفسير القرآن الكريم للثوري ، وهو أول مابدأ به تفسيره ...

(٢و٣) ص ٢ من تفسير القرآن الكريم للثوري .

(٤) ص ٦ من تفسيره .

(٥) ص ٧ « «

تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » قال : صلاتكم ، قال سفيان : فقيل للنبي ﷺ : فكيف يصنع بمن قد مضى من أصحابنا ؟ يعنون من قد صلى إلى بيت المقدس فمات !؟ فنزلت : « وما كان الله ليضيع إيمانكم ... »[١] . وعنه في قوله تعالى : « فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً » قال : جنفاً : خطأً ، « أو إثماً » عمداً[٢] . وعنه في قوله تعالى : « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » قال : قبل القرآن[٣]. وعنه في قوله تعالى : وآتوا حقه يوم حصاده » قال : لما نزلت ، جعل ثابت بن قيس بن شماس لا يجيء أحد إلا أعطاه ، فنزلت « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . ابق لعيالك[٤] . وعنه في قوله تعالى : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود.. » قال : الخشوع والتواضع[٥] .

إلى غير ذلك من أقوال مجموعة في تفسيره الذي أشرت إليه .

\- \- \-

(١) ص ١٢ من تفسيره .
(٢) ص ١٦ » »
(٣) ص ٢٥ » »
(٤) ص ٦٨ » »
(٥) ص ٢٣٩ » »

الحديث

١ ـ طلبه الحديث وروايته له :

كان سفيان الثوري يرى أن طلب العلم والحديث أفضل شيء بعد الفرائض ، فلا نراه يترك مجالاً يستفاد منه في هذا الميدان إلا استفاد ، ولا يتعرف على شخص إلا ويسأله ويحاول الاستفادة منه ، وكان يتنقل من محدث إلى آخر ليسمع منه ويروي عنه ...

وإن مواظبته على استماع حديث أستاذه ـ الأعمش ـ واهتمامه بذلك جعلته أدقّ بحديث الأعمش من الأعمش نفسه.

وهناك أخبار كثيرة تروي لنا اهتمام سفيان بالحديث الشريف ، والسند ، فقد كان يسمي أصحاب السند : أصحاب السلاح .

وروى ابن أبي حاتم في تقدمته عن يحيي بن سعيد القطان قال : كان سفيان ماشئت من صلاة وقراءة ، فاذا جاء الحديث فكأنه ليس الذي كان .. »[1] .

---

(١) تقدمة ص ٦٥ .

وذكر عبد الرحمن بن مهدي قال : « كنا نكون عند سفيان فكأنه قد أوقف للحساب فلا نجترىء أن نكلمه، فنعرض بذكر الحديث فيذهب ذلك الخشوع ، فإنما هو : حدثنا ، حدثنا[١] » .

وكان كثيراً مايرغب في الحديث وإملائه ، فقد حدث وكيع : أنه رأى سفيان أملى على رجل شيئاً ، فقال : هذا خيرٌ لك من ولايتك الري[٢] .

ورؤي مرة بصنعاء يملي على صبي ويستملي له ...[٣]

وقد خرج سفيان مرة من البيت ، وكان على الباب جماعة من الشباب يتدارءون في النَسْخِ[٤] ، فقال : يامعشر الشباب : تعجلوا بركة هذا العلم ، فإنكم لاتعلمون هل تبلغون ماتأملون منه ، ليفد بعضكم بعضاً[٥] » .

وكان سفيان يحبب طالب الحديث ، ويلي من يريده

---

(١) الحلية (ج٦/٣٧١) .
(٢و٣) الحلية (ج٦/٣٧٠) .
(٤) أي يتدافعون الكتابة ويفضل كل واحد منهم السماع ، وذلك من درأ الشيء إذا دفعه .
(٥) الحلية (ج٦/٣٧٠) .

في أي حال كان دون تلكؤ ، روى ابن أبي حاتم : أنه قيل لسفيان قبل خروجه إلى البصرة :

« لو جلست لنا مجلساً ؟ فاستقبل القبلة ثم ابتدأ فكتب عنه الوليد بن عقبة الشيباني ثلاثمائة حديث في تلك الجلسة[1] » .

ولم يزل سفيان يطلب الحديث والتحديث حتى أصبح ذلك ضرورة من ضرورات حياته ، حتى إنه عندما كان في البصرة مختفياً من السلطان الذي يلاحقه ، كان سفيان يطلب العلماء إليه ، ويدعوهم إلى مخبئه ليحدثوه ويأخذ عنهم ، ويذاكرهم .

قال سليمان بن المغيرة البصري :

« قدم علينا سفيان الثوري ، فأرسل إلي : إنه بلغني عنك أحاديث وأنا على ماترى من الحال - أي من الملاحقة - فائتني إن خِفْتَ عليك ، قال : فأتيته فسمع مني ، وقال : وفعل ذلك بغير واحد من أصحابي[2] » .

وروى ابن أبي حاتم : « أن سفيان جعل على نفسه

(١و٢) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٧ .

لكل ليلة جزءاً من القرآن وجزءاً من الحديث ، قال : فيقرأ جزأه من القرآن ، ثم يجلس على الفراش فيقرأ جزأه من الحديث ، ثم ينام ، وهكذا في كل ليلة ...»(١)

ومن هذه الأخبار وأمثالها تظهر لنا شخصية سفيان الطالبة للحديث والمهتمة به ، ولا عجب ، فان الحديث عماد العلم وأساسه ، فهو القائل « العلم بالآثار(٢) » .

وهو الذي يرى أن على الوالد إجبار ولده على طلب الحديث وتعلمه لأنه مسئول عنه(٣) .

٢ ـ طريقته في تحمل الحديث وأدائه :

التثبت في تحمل الحديث وروايته صفة أساسية في محدثنا الثوري ، فكان يحرص على السماع ، ويتثبت في روايته عن غيره ...

يقول عبد الرحمن بن مهدي :

« كنت مع سفيان الثوري عند عكرمة ، فجعل

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٦ .
(٢) الحلية (ج٦/٣٦٧) .
(٣) الحلية (ج٦/٣٦٥) .

يوقفه على كل حديث على السماع[١] » .

وروى أيضاً : أنه شهد سفيان عند ـ العمري ـ فجعل يوقفه في كل حديث ، توقيفاً شديداً[٢] » .

وروى ابن أبي حاتم عن يحي القطان قال : شهدت سفيان يقول لأبي الأشهب : قل سمعت ، قل سمعت[٣] ..

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال : قال لي سفيان الثوري بمنى : مُرَّ بنا إلى عكرمة بن عمار اليامي ، قال : فجعل يملي على سفيان ، ويوقفه عند كل حديث : قل : حدثني ، سمعت ... »[٤]

وكان لايقبل كتابة حديث لم يتأكد منه ، روى يحي القطان قال : إنه كان إذا حدثني بالحديث فلم يتقنه قال : لاتكتبه[٥] » .

وكان يرى جواز الرواية بالمعنى ، ويعتبره هو الأغلب ، ورعاً من أن يظن به لفظ النبوة .

(١و٢) التقدمة ص ٦٨ ، وانظر الميزان للذهبي (ج ٣/٩١).
(٣) التقدمة ص ٨٢ .
(٤) » ص ١١٧ .
(٥) » ص ٦٧ .

روى أبو نعيم[١] : قال صاحب لسفيان : يا أبا عبدالله : حدثنا كما سمعت ، فقال : لا والله ما إليه سبيل ، وما هو إلا المعاني . وكان يقول :

« لو قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني » .

وحدث عن نفسه قال : « إني لأكتب الحديث من سبعة أوجه ، المعنى واحد[٢] » .

وكان سفيان يختار عقلاء الناس ونبهاءهم ليروي لهم الحديث إعلاءً له وترفعاً به عن سُفَّل الناس .

روى أبو نعيم عنه : أنه كان لا يحدث النبط ولا سُفَّل الناس[٣] » .

وكان يقول :

« إنما العلم أخذ عن العرب ، فاذا صار إلى النبط وسفل الناس قلبوا العلم[٤] » .

• • •

(١) الحلية (ج ٦/ ٣٧٠) .
(٢) الحلية (ج ٧/ ٧٢) .
(٣و٤) الحلية (ج ٦/ ٣٦٩) .

٣ ـ حفظـــه :

لقد كان محدثنا سفيان آيةً من الآيات في الحفظ ، فلقد أوتي حافظة نادرة المثال ، وكان يقول عن نفسه ـ وهو الثقة الصادق ـ : « ماستودعت قلبي شيئاً قط فخانه[١] » .

وإن حفظه الدقيق المتميز عن غيره دعا أقرانه من العلماء الكبار ، والحفاظ في عهده يفردونه بذلك ، فيقول عبد الرحمن بن مهدي :

« قدمت على سفيان بن عيينة فجعل يسألني عن المحدثين؟ فقال : مابالعراق أحد يحفظ الحديث إلا سفيان الثوري[٢] » .

وقال يحي بن سعيد القطان : « مارأيت أحداً أحفظ من سفيان الثوري » .

وحدث ابن المديني : عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يقول :

« كان وهيب يقدمُ سفيان في الحفظ على مالك[٣] » .

ويقول شعبة عنه : « إذا خالفني سفيان في حديث، فالحديث حديثه ، وكان إذا حفظ الشيء لم يبال من خالفه[٤] » .

(١و٢و٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٣ .

(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٥ .

وحدث وكيع : أن شعبة ذكر حديثاً عن أبي إسحق، فقال رجل : إن سفيان خالفك فيه ، فقال : دعـــوه ، سفيان أحفظ مني(١) .

وكان الامام أحمد بن حنبل يقول : « سفيان أحفظ الإسناد وأسماء الرجال من شعبة(٢) » .

وقال يحي بن سعيد القطان : قال لي سفيان بعد ثماني عشرة سنة أو تسع عشرة سنة : في حديث عمرو بن مرة : هذا أليس قد حدثتك به مرة(٣) .

وعن شعبة أنه قال :

« ماحدثني أحد عن شيخ إلا إذا سألته – يعني ذلك الشيخ – يأتي بخلاف ماحُدِّثتَ عنه ، ماخلا سفيان الثوري ، فانه لم يحدثني عن شيخ إلا إذا سألته وجدته على ماقال سفيان(٤) » .

روى الخطيب البغدادي عن عبد المؤمن بسنده قال: سمعت أبا علي يقول : سفيان أكثر حديثاً من شعبة وأحفظ،

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٥ .
(٢و٣) « « « ص ٦٦ .
(٤) « « « ص ٦٧ .

يبلغ حديثه ثلاثين ألفاً(١) .

وقد مر معنا أن الأشجعي روى عن سفيان ثلاثين ألف حديث(٢) .

وأختم حديثي عن حفظ سفيان بقول ابن المبارك رحمه الله :

« تباً لمن خالف سفيان الثوري في الحديث ـ وإن كان محقاً ـ »(٣) .

ويكفي هذا من إمام مثل عبد الله بن المبارك ، ولو أردت جمع ماقيل في حفظه وقوه ذاكرته ، لاحتجت إلى رسالة خاصة في ذلك ، وسنرى الآن زيادة على ذلك في الفقرة التالية :

• • •

٤ ـ معرفة الثوري بحديث الأعمش :

الثوري : أحفظ أصحاب الأعمش بشهادة أجمع عليها تقريباً علماء الحديث حتى الأعمش نفسه .

(١) تاريخ بغداد (ج ٩/١٧١) .
(٢) انظر عنوان تلامذته من هذه الرسالة .
(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٨ .

فقد روي عن كثير من الأئمة كيحي بن معين وغيره ذلك القول(١) .

وأخبر الحسين بن عياش قال : كنا نأتي سفيان إذا سمعنا من الأعمش ، فنعرضها عليه بالعشي ، فيقول : هـذا من حديثه ، وليس هذا من حديثه(٢) .

وقال زائدة : كنا نأتي الأعمش فيحدثنـا فيكثر ، ونأتي سفيـان الثوري فنذكر تلك الأحاديث له ، فيقول : ليس هذا من حديث الأعمش ، فنقول : هـو حدثنـا به الساعة ، فيقول : اذهبوا فقولوا له إن شئتم ، فنأتي الأعمش، فنخبره بذلك ، فيقول : صدق سفيـان ، ليس هـذا من حديثنـا(٣) .

وإن كثرة هذه الحوادث جعلت كثيراً من الأئمة يرى تقدم سفيان على الأعمش نفسه في حديثه ، حتى قال يحي بن سعيد :

« كان سفيان أعلم بحديث الأعمش من الأعمش(٤)» .

• • •

(١) التقدمة ص ٦٤ .
(٢) « ص ٧٠ .
(٣) « ص ٧١ .
(٤) تاريخ بغداد (ج٩/١٦٧) .

٥ ـ علمه بالرجال :

كان سفيان ذا علم واسع بالرجال ، حتى كان الامام أحمد رحمه الله يفضله في ذلك على شعبة ويقول :

« سفيان أحفظ للإسناد وأسماء الرجال من شعبة(١)».

وكان سفيان يقول في ـ جابر الجعفي ـ : إذا قال جابر حدثنا وأخبرنا فذلك(٢) .

وروى عنه عبد الرحمن بن مهدي أنه قال :
« كان جابر ورعاً في الحديث ، مارأيت أورع في الحديث من جابر » .

كما يقول في إبراهيم بن مهاجر : ـ لابأس به ـ .

ويقول :
« ماخلفت بعدي بالكوفة آمن على الحديث من منصور ابن المعتمر » . وكان يزكي ـ المعافى بن عمران ـ ويقول عنه : ياقوتة العلماء(٣) .

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٥ .
(٢) » » » ص ٧٤ .
(٣) » » » ص ٧٥ .

وقال سفيان مرة لمن حوله :

« أخرج إليكم كتاب خير رجل بالكوفة ، فقال من حوله يخرج كتاب منصور ، فأخرج كتاب ـ محمد بن سوقة ـ .

وكان سفيان مرة في المسجد الحرام فمر ـ عبدالوهاب ابن مجاهد ـ فقال سفيان : هذا كذاب .

ويقول عن ـ أبان ـ كان نسياً للحديث .

إلى غير ذلك من أقوال تكثر في كتب الرجال ، اكتفيت ببعض مانقله ابن أبي حاتم في تقدمته عن ذلك[1].

ـ ـ ـ

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٧٦ .

الفقه

١ - مكانته الفقهية :

بعد أن عرفنا سابقاً أن سفيان الثوري صاحبُ مذهب متبع معمول به عدة قرون ، ندع المجال لأقوال أقرانه وعلماء زمانه تبين لنا مكانته الفقهية .

فهو ذو باع عظيم في فهم الحديث وفقهه ، فكان عالم رواية ودراية يتميز بذلك عن كثير من إخوانه العلماء والفقهاء.

روى أبو نعيم عن سليمان بن حيان ، قال : كنا نصحب سفيان الثوري ، وقد سمعنا ممن سمع منه ، إنما نريد منه تفسير الحديث(١) .

وهذا ابن عيينة يقول عنه :

« مارأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام ـ وهو الفقه ـ من سفيان الثوري »(٢) .

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٦٦) .
(٢) التقدمة ص ٥٥ .

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول :

« أئمة الناس في زمانهم أربعة : سفيان الثوري في الكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعي بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة[١] » .

وكان زائدة يقول : كان سفيان أفقه الناس[٢] .

وقال محمد بن المعتمر : قلت لأبي سليمان : من فقيه العرب ؟ قال : سفيان الثوري[٣] .

وقد شهد له بذلك ابن المبارك ، فقال قبل وفاة سفيان بيومين أو ثلاثة : « ماأحد عندي من الفقهاء أفضل من سفيان بن سعيد[٤] » .

. . .

٢ ـ طريقته في استنباط الأحكام :

يظهر للباحث من تتبع أقوال الثوري في الفقه أنه

---

(١) التقدمة ص ١١٨ .
(٢) الحلية (ج ٦/٣٥٧) .
(٣) التقدمة ص ٥٧ .
(٤) تاريخ بغداد (ج ٩/١٥٧) .

يجمع بين ميزات مدرستين ، مدرسة الحديث ، ومدرسة الرأي.

فهو الذي يعمل فكره ورأيه في الاحكام ، واستنباطها من الأدلة العقلية فيما لايصح عنده حديث فيها .

وهـو الذي يوصي بالآثار ، ويعتمد عليها قبـل كل شيء ، ومما يدل على هذا قول الفضل بن موسى الشيباني : قال الثوري :

« تعلموا هذه الآثار فمن قال برأيه ، فقل رأيي مثل رأيك[١] » .

وروى ابن المبارك عنه أنه قال : « إنما العلم بالآثار[٢] ».

وكان يراعي أحوال الناس وحاجاتهم في أحكامه ، ويرى أن الفقيه العالم هو الذي يراعي ذلك ، فيقول :

« إنما العلم عندنا الرخص عن الثقة ، فأما التشديد فكل إنسان يحسنه[٣] » وكان يتبع في طريقته مذهب أصحاب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، يقول علي بن المدني : « أصحاب عبد الله بن مسعود ستة الذين يقرؤون ويفتون ، ومن بعدهم

(١و٢و٣) الحلية (ج ٦/٣٦٧) .

أربعة ، ومن بعد هؤلاء سفيان الثوري ، كان يذهب مذهبهم ، ويفتي بفتواهم ، وكان أعلم الناس بأبي أسحق والأعمش بحديثهم وطريقتهم[١] » .

وكان يقر الرأي والاختلاف فيه ، ولا تضيق نفسه من الآراء الفقهية والاجتهادات العلمية المختلفة ، وقد ذكر عنه قوله :

« لاتقولوا اختلف العلماء في كذا ، ولكن قولوا:وسع الفقهاء على الأمة في كذا » . ويقول :

إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه، وأنت ترى غيره فلا تنهه[٢] » .

كما كان يحتاط في الفتوى ، ويحسب لها حساباً ، فعن مروان بن معاوية قال :

« شهدت سفيان الثوري وسألوه عن مسألة في الطلاق فسكت ، وقال : إنما هي الفروج[٣] »

ويظهر لنا جمع سفيان الثوري بين ميزات الطرفين،

---

(١) التقدمة ص ٥٨ .

(٢) الحلية (ج ٦/٣٦٨) .

(٣) التقدمة ص ٩٧ .

من موافقاته الكثيرة التي سنراها في آرائه الفقهية أحياناً مع أصحاب الرأي من أبي حنيفة رحمه الله والكوفيين ...

وتارة مع أصحاب الحديث كالأوزاعي وغيره من المحدثين ، وهو الذي يقول : فقهاؤنا ابن شبرمة ، وابن أبي ليلى(١).

ولعل الفضل في جمع سفيان الثوري بين الاتجاهين والمدرستين ، يعود إلى شخصية سفيان الجامعة من جهة ، ونشأته في الكوفة - مقر مدرسة الرأي وعلمائها - وتنقلاته منها إلى الحجاز - مقر مدرسة الحديث وعلمائها - من جهة أخرى .

وقد مر معنا أنه عاش في الكوفة /٤٨/ سنة ، ثم رحل إلى الحجاز وقضى فيها مايزيد على عشر سنوات ، مما جعل أثر مدرسة الحديث فيه واضحاً ، إلى أن تركها إلى البصرة في آخر أيامه .

. . .

٣ - شيء من أقواله في الفقه :

إن أقوال سفيان الثوري الفقهية لتنتشر في كتب الأدلة

---

(١) التقدمة ص ٧٢ .

والفقه ، وتحتاج إلى استقصاء واستقراء شديدين لجمعها وإبرازها منفصلة عن غيرها ...

ولقد كنت تتبعت أثناء دراستي عن سفيان عدداً من الكتب العلمية ، وجمعت غير قليل من آرائه الفقهية مما لايزال في رأيي بحاجة إلى متابعة أوفى .

وسأختصر في هذه الرسالة على ذكر جانب قليل من بعض أقواله ، لتكون نموذجاً حاضراً لفقهه ، سائلاً الله عز وجل أن يوفقني لمتابعة الموضوع ، اكمالاً لخدمة هذه الشخصية العظيمة . من ذلك قوله في حكم بول الصبي :

« يكتفى فيه بالنضح ، ولا يكفي ذلك في بول الجارية[1] » .

فهو في هذه المسألة كما يظهر يوافق ماذهب إليه سيدنا علي من الصحابة ، وعطاء والزهري ، وأحمد وإسحق وابن وهب وغيرهم . كما يخالف فيما ذهب إليه الامام الأوزاعي وما حكي عن الامام مالك والشافعي رحمهم الله حيث يرون أن النضح يكفي فيها دون تفريق .

كما يخالف سائر الكوفين في قولهم : أنه لابد من الغسل في كل من بول الغلام والجارية .. وما ذلك إلا

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني (ج ٦١/١) . الطبعة الأخيرة لمصطفى البابي الحلبي ...

وقوفاً عند بعض الأحاديث المفرقة بينها التي صحت عنده ، ورواها أحمد وغيره[١] ..

ومن ذلك قوله في نقض الوضوء :

« أنه ينتقض الوضوء بكل نجاسة تسيل من الجسد وتخرج منه من أي موضع خرجت، كالدم والرعاف والفصد...[٢]»

ووافق في ذلك مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وأحمد وبعض السلف ... وخالف في هذا مذهب الامام الشافعي وأصحابه الذين يرون أن الناقض خروج هذه النجاسة من أحد السبيلين ...

ومن ذلك قوله في حد أكثر النفاس :

« إن أكثره أربعون يوماً ، لحديث أم سلمة رضي الله عنها : كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله ﷺ أربعين يوماً[٣] » .

فوافق في ذلك اجتهاده اجتهاد عدد من الصحابة ، والشعبي

---

(١) انظر تفصيل ذلك في نيل الأوطار (ج ١/٥٩) وما بعدها .

(٢) « بداية المجتهد (ج ١/٣٥) . ط . مكتبة الكليات الأزهرية عام ١٣٨٦ هـ .

(٣) انظر نيل الأوطار (ج ١/٣٢١) .

والمزني وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ومالك .

وخالف فيه ماذهب إليه الحسن البصري ، والشافعي وغيرهم .

ومن ذلك قوله في مباشرة الحائض :

« أن على الرجل أن يتجنب موضع الدم فقط ، أخذاً من ظاهر قوله تعالى :

« قل هو أذى » - والأذى يكون موضع الدم - وهو مذهب داود الظاهري .

وخالف فيه جمهور العلماء كما هو معلوم[(١)] .

ومن ذلك قوله في المسح على الخفين :

« يجوز المسح على الخفين مادام يسمى خفاً وإن كثر خرقه[(٢)] » وخالف في ذلك أكثر العلماء الذين اشترطوا أن يكون الخرق يسيراً ، وقدره بعضهم بثلاث أصابع ، وذلك لأن علة انتقال الفرض من الغسل إلى المسح - عند الثوري - هي لموضع المشقة لا لموضع الستر ، والتفريق بين الخرق الكثير والقليل إنما هو استحسان ، ويقول الثوري في ذلك :

---

(١) انظر بداية المجتهد (ج ١/٥٨) .

(٢) بداية المجتهد (ج ١/٢١) .

« كانت خفاف المهاجرين والأنصار لاتسلم من الخروق كخفاف الناس ، فلو كان في ذلك حظر لورد نقل عنهم ».

ومن ذلك قوله في رفع اليدين في الصلاة :

« أنه لايرفع يديه إلا في تكبيرة الاحرام فقط »[١] فوافق في ذلك مذهب أبي حنيفة والكوفيين ، وخالف ماذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو ثور وجمهور المحدثين ، وسبب ذلك اختلاف الآثار الواردة في ذلك[٢] .

ومن ذلك قوله في الشفعة :

« تثبت الشفعة بالجوار »[٣] موافقاً بذلك أبا حنيفة وابن أبي ليلى ، وابن سيرين ، ومخالفاً ماذهب إليه الجمهور من عدم ثبوتها له وتخصيصها عندهم بالشريك .

إلى غير ذلك من أقوال فقهية كثيرة في مختلف أبواب الفقه ...

• • •

(١) بداية المجتهد (ج ١/١٣٦) .
(٢) راجع تفصيل ذلك في بداية المجتهد (ج ١/١٣٦-١٣٧).
(٣) انظر نيل الأوطار (ج ٥/٣٧٣) .

٤ - شيء عن نباهته ودقته في الاستنباط :

لقد كان سفيان ذا ذكاء شديد على ما أوتي من علم وفير ، فكانت تلقى عليه المسائل ، فيحلها من ساعتها ، كما مر بنا في عنوان نبوغه العلمي .

وأكتفي هنا بما ذكره ابن أبي حاتم عنه يصور لنا دقته في الأحكام ونباهته في البحث عن أسبابها لما لها علاقة بأقواله الفقهية :

حدث ابن أبي حاتم بسنده عن الفريابي قال :

« رأينا سفيان الثوري بالكوفة ، وكنا جماعة من أهل الحديث ننزل في دار ، فلما حضرت صلاة الظهر ، دلونا دلواً من بئر في الدار ، فاذا الماء متغير ، فقال : مابال مائكم هذا ؟ قلنا : هو كذا منذ نزلنا هذه الدار ، فقال : ادلوا دلواً من بئر الدار التي قبليكم ، فاذا ماء أبيض ، ثم قال : ادلوا دلواً من بئر الدار التي شرقيكم ، فاذا ماء أبيض ، فقال : ادلوا دلواً من من بئر الدار التي شأمكم ، فاذا ماء أبيض ، فقال : ادلوا دلواً من بئر الدار التي غربكم ، فاذا

ماء أبيض ، فقال : إن لبئركم هذا لشأناً ، فحفرنا ، فأصبنا عرق كنيف ينز فيه ، فقال لنا : منذ كم نزلتم هذه الدار ؟ قلنا أربع سنين ، فأمر باعادة صلاة أربع سنين فيها ركعتا الفجر ، وركعتان بعد المغرب والوتر ... »(١) .

- - -

---

(١) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٠ .

الأخلاق

لقد أصبح علم الأخلاق علماً متميزاً عن غيره من العلوم ، فكتب فيه العلماء الكتب ، وصنفوا المجلدات الكبيرة فيه ، وكثيراً مايعرف هذا العلم عند العلماء بعلم التصوف ، الذي يتعرض فيه لتهذيب النفس ، والزهد ، وآداب السلوك. كما يترجم فيه للعلماء العاملين ، والزاهدين العابدين ...

ولقد مر معنا سابقاً أن سفيان يحتل في هذا المقام المنزلة الرفيعة عند العلماء ، ويعتبرونه قدوة لغيره في هذا الباب ...

فقد قال عنه ابن المبارك رحمه الله :

« تعجبني مجالس سفيان الثوري ، كنت إذا شئت رأيته في الورع ، وإذ شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه(١) » .

ولما سئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن ورعه ؟ أخبر أن قدوته في ذلك سفيان الثوري ...

(١) الحلية (ج ٦/٣٥٨) .

فلقد كان سلوك السلف الصالح ومنهم سفيان الثوري صورة صادقة للتصوف النقي السليم الذي نراه في كتب المتقدمين من الصوفية ، وفي أقـــوالهم وأخبارهم ، كتصوف الامام الحسن البصري المتوفى عام ١١٠ هـ ، وأبي إسحق إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفى سنة ١٦١ هـ ، وأبي سـليمان داود ابن نصير الطائي المتوفى سنة ١٦٥ هـ وأبي علي الفضيل بن عياض الخراساني المتوفى بمكة سنة ١٨٧ هـ وغيرهم من الأئمة رضوان الله عليهم ...

وإذا إساء بعض أهل التصوف في القرون المتأخرة إلى التصوف ، وأدخلوا فيه بعض البدع والمنكرات ... فان ذلك ينكشف أمره وزيفه إذا مارجعنـا إلى سيرة هؤلاء الأعلام الأوائل ، الذين اتفق على إمامتهم وقدوتهم ...

ولا أريد هنا أن أتوسع في الكلام عن هذا العلم ، وعن مكانة سفيان الثوري فيه ، لأنني أفردت باباً خاصاً بحياة سفيان العملية تحدثت فيه عن أحوال سفيان الثوري وآدابه وسلوكه .

وسيجد القارى الكريم في سيرة هذا الامام العملية مايعطيه صورة واضحة عن سلوك السلف وأخلاقهم إن شاء الله.

- - -

الحساب

لقد مر معنا ونحن نتحدث عن العلوم عند سفيان ، سفيانُ المفسر ، وسفيان المحدث ، والفقيه ... وها نحن الآن نرى سفيان عالم الحساب .

كما مر معنا في بحثنا عن عصر سفيان العلمي اندماج العلوم العقلية والفكرية بالعلوم الشرعية والنقلية ، ولقد كان لهذا العصر أثر كبير في شخصية سفيان الجامعة لكل علم من العلوم ...

وإن شهرة سفيان الثوري في الحساب ، ونباهة ذهنه الرياضي دعت ابن أبي حاتم رحمه الله إلى أن يفرد لهذا العلم باباً خاصاً في حديثه عن سفيان ، فنراه يقول في ترجمته : « باب في معرفة سفيان الثوري بالحساب[١] » .

ثم يذكر بسنده عن محمد بن مهران الجمال ، يقول: كان بالري رجلٌ يقال له ـ حجاج ـ وكان ينزل الأزدان ، وكان حاسباً ، فقدم حجّاج هذا على الثوري ، فسأله عن

(١) التقدمة ص ١٢٥ .

مسألة من الحساب ، فنظر إليه الثوري ، فقال : من أين أخذت هذه المسألة ؟ فان هذه المسألة لايحسنها إلا رجل بالري يقال له حجاج ، قال : فأنا حجاج ، قال : فرحب به ثم ألقى عليه عشر مسائل من الحساب ، وجعل الثوري يعد ، ويجيب فيها حجاج ، فلما فرغ ، قال له الثوري : أخطأت فيها كلها[١] » .

فهذه القصة إن دلت على شيء سوى دلالتها على معرفة سفيان بالحساب ، فانما تدل على شهرته في هذا الفن أيضاً ، مما دعا حجاجاً إلى الوفود عليه وسؤاله له !.. كما تدلنا على معرفة سفيان بأهل الحساب، وترحيبه بهم ومناظرته لهم.

كما نرى فيها أخيراً : تخطئة سفيان الحسابي البارع لحجاج المشهور بذلك ، وحسبنا هذا في بيان مكانة سفيان الحسابية ، ونباهته العقلية ...

– – –

(١) التقدمة ص ١٢٥ .

الفصل الثالث

آثار سفيان

إن الأخبار التي وقفت عليها في ترجمة سفيان لتدلنا على كثرة تآليفه ، فقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي عبد الرحمن الحارثي قال :

« خاف سفيان شيئاً فطرح كتبه ، فلما أمن أرسل إليَّ وإلى يزيد بن ثور المرهبي ، فقال : أخرجوا الكتب فدخلنا البئر ، فجعلنا نخرجها ، فأقول : يا أبا عبد الله : وفي الركاز الخمس ـ وهو يضحك ـ .

فأخرجنا تسع قمطرات كل واحد إلى هنا ـ وأشار أسفل ثندوته ـ قال : فقلت : أعزل كتاباً تحدثني به ؟ قال : فعزل لي كتاباً فحدثني به[1] » .

وهناك روايات أخرى تشير إلى ذلك ، وأن سفيان دفن كتبه مدة خوفاً من السلطان الملاحق له ـ كما مر معنا في بحث رحله وتنقلاته ـ .

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٥ .

كما ذكر صاحب الفكر السامي : أن الامام البخاري ملأ صحيحه من الموطأ ، ومسندي السفيانيين وغيرهما(١) ، يعني - سفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة - ثم قال :

« ولم تكن - أي كتبهم - خاصة بأنفسهم بل نشروها في عموم الناس ، فانتفعوا بها ، إلا أنها لم تبلغ مبلغ موطأ مالك في الانتشار والتواتر وغير ذلك ... »(٢) .

وروى ابن أبي حاتم أن سفيان صنف مسنده في الكوفة.

وروى أبو نعيم في الحلية أن بشر بن الحارث قال : « الذي أنا عليه ، بل كل الذي أنا عليه ، جامع سفيان »(٣) .

وروى أبو نعيم بسنده عن إبراهيم بن عيسى أنه قال : رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم فقال : « عليكم بجامع سفيان »(٤) .

كما ذكر الزركلي في ترجمته : أنه له : الجامع الكبير،

(١و٢) الفكر السامي ص ٢٨٦ .
(٣) الحلية (ج ٣٦/٧) .
(٤) « (ج ٣٨٣/٦) .

والجامع الصغير في الحديث ، وكتاباً في الفرائض(١) .

وقال ابن النديم في الفهرست :

« له من الكتب : **الجامع الكبير** يجري مجرى الحديث ، رواه عنه جماعة ، منهم : – يزيد بن أبي حكيم – وعبد الله بن الوليد العدني – وإبراهيم بن خالد – وعبد الملك الحيري – ومن غير أهل اليمن : الحسين ابن حفص الأصفهاني .

والجامع الصغير رواه جماعة ، منهم : – الأشجعي غسان بن عبيد – والحسين بن حفص الأصفهاني – والمعافى بن عمران الموصلي – وعبد العزيز بن أبان – وعبد الصمد بن حسان – وزيد بن أبي الزرقاء – والقاسم بن يزيد الجرمي .

وكتاب الفرائض ، ورسالة إلى عباد بن عباد الارسوفي في كتاب ...(٢) والذي يظهر من تتبع آثار « سفيان » أن له جامعاً آخر في الرأي .

فقد قال أبو العرب التميمي المتوفى ٣٣٣ في كتابه « طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس » :

« روى جامع سفيان الكبير البهلول بن راشد عن علي بن زياد عن سفيان .

وحدثني محمد بن خالد عن أبيه قال : قال لنا البهلول بن راشد : قوموا بنا نذهب إلى ابن خارجة نسمع منه جامع سفيان

---

(١) الأعلام (ج ١٥٨/٣) .

(٢) الفهرست ص ٣٢٨ . وانظر مقدمة تفسير الثوري ص ٣١ وما بعدها ففيها تفصيل جيد لذلك .

الثوري – يعني جامعه في الرأي – (أ) (١)

ثم قال : إن محمد بن أبي الهيثم اللؤلؤي « حدثني عن أبيه عن البهلول بن راشد عن علي بن زياد عن سفيان الثوري بجامع سفيان الكثير الآثار .

وقد روي عن سفيان جامعاً له وسطاً ، آثارٌ كله ، قال أبو العرب : ولم أعلمه حمل عنه جامعه في الرأي »(٢)

وقد سبق لي أن تحدثت عن كتاب « تفسير الثوري » الذي حققه وأخرجه الأستاذ امتياز علي عرشي مدير مكتبة رضا ، رامبور ، الهند .

كما ذكر ابن النديم أيضا : تحت عنوان :

– سبب يدل على أن أول من وضع في النحو كلاماً أبو الأسود الدولي – قال :

« عن محمد بن إسحق : أن رجلًا نسي اسمه خصةٌ باطلاعه قبل وفاته بخطوط قديمة ، وأنه رأى من الجملة : من خطوط أصحاب الحديث : خط سفيان الثوري وسفيان ابن عيينة ، ثم لما مات فقد هذا القمطر »(١) .

وذكر عبد الرحمن بن مهدي أن خط سفيان كان خط سوء(٢) .

---

(١) ص ١٢٦ – ١٢٧ .
(٢) ص ٢٢٠ .

(١) الفهرست ص ٦٧ .
(٢) الميزان للذهبي (ج ٣/٩١) .

الفصـل الرابـع

ثناء الأئمة عليه

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالرحمن بن مهدي قوله :

« الناس على وجوه ، فمنهم من هو إمام في السنة إمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في الحديث وليس بإمام في السنة فأما من هو إمام في السنة إمام في الحديث،فسفيان الثوري[١] » .

كما روي عن شعبة ، ويحيى بن معين ، وابن عيينة وغيره أنهم أطلقوا على سفيان « أمير المؤمنين في الحديث ».

وحدث يعقوب عن شعبة أنه قال : سفيان أمير المؤمنين في الحديث ، بعد أن حدث يعقوب حديثاً عن شعبة عن سفيان ، فقال يعقوب : كبير عن كبير[٢] .

وكان زائدة ـ وهو من كبار علماء الحديث ـ يقول: « الثوري سيد المسلمين[٣] » . وقال علي بن المديني:

(١و٢و٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٨ .

« نظرت فاذا الاسناد يدور على ستة : الزهري ، وعمر بن دينار ، وقتادة ، ويحيى بن أبي كثير ، وأبو اسحق والأعمش ، ثم صار علم هؤلاء الستة من أهل الكوفة إلى سفيان »[١] .

وعندما بلغ ـ معمراً ـ أن سفيان قادم إلى اليمن قال:
« قد قدم عليكم محدث العرب[٢] » .

وقال الامام أبو حنيفة رحمه الله عنه : « لو كان سفيان في التابعين لكان فيهم له شأن[٣] » .

وقال : رحمه الله في فقده لو مات سفيان في زمن إبراهيم ـ يعني النخعي ـ لدخل على الناس فقده[٤] .

وقال أبو بكر بن عياش :
« إني لأرى الرجل صحب سفيان فيعظم في عيني[٥] ».
كما قال الامام مالك رحمه الله :

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٦٠ .
(٢) » » » ص ٥٧ .
(٣) تاريخ بغداد (ج ٩/٦٩) .
(٤) » » (ج ٩/١٦٩) .
(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ٨٥ .

« إنما كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان الثوري[١] .

وما أعظم قول الامام الأوزاعي فيه :

« لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان[٢]» .

وقول الأمام أحمد رحمه الله وهو يتحدث عن سفيان:

« لم يتقدمه في قلبي أحد[٣] » .

إلى غير ذلك من أقوال في ثناء الأئمة عليه ، واعترافهم له بالفضل ، إلا أننا مع هذا الثناء الكثير الواضح من الأئمة على سفيان ، نجد في بعض كتب الجرح والتعديل وغيرها أقوالاً في سفيان ، يحسن توضيحها والوقوف عليها حتى لاتفهم على غير حقيقتها ...

فقد ذكر بعض من ترجم لسفيان الثوري أنه كان من المدلّسين ، وكان هذا القول وأمثاله سبب عثور أفراد اعتمدوا عليه لأغراض مختلفة ، فحكموا بجرح سفيان ، وطعنوا في روايته ...

(١) انظر تاريخ بغداد (ج٩/١٦٤) ومقدمة تفسير الثوري ص ١٣ .
(٢) « مقدمة تفسير الثوري ص ١٣ .
(٣) « رسالة سفيان الثوري للدكتور عبدالحليم محمود ص ٦٣ .

وقبل تفنيد أقوالهم ، لابد لي من كلمة موجزة عن التدليس وأقسامه عند المحدثين فالحديث المدلس هو الذي دلس فيه الراوي بوجه من وجوه التدليس ـ الشيوخ أو الاسناد ـ .

أما تدليس الشيوخ : فهو : وصف الشيخ بأوصاف كثيرة وألقاب وكنى عديدة توهم كثرة الشيوخ وتعددهم ... وغير ذلك ...

وأما تدليس الاسناد : فهو رواية الراوي عمن لقي مالم يسمع منه ، أو عمّن عاصره ولم يلقه ، بلفظ موهم بالسماع منه ، وقسموه أنواعاً منها تدليس التسوية ...

وتدليس التسوية هذا هو : أن يسقط الراوي شيخه أو من فوقه لكونه ضعيفاً أو صغيراً أو غـير ذلك بقصد تحسين الحديث .

وقد قيل في سفيان الثوري : إنه من أهل تدليس التسوية ، لكن نفاه عنه بعضهم ، وجعل تدليسه من تدليس الشيوخ ـ وهو من حيث الجملة دون تدليس الاسناد ـ .

فنقل السيوطي : عن البيهقي في مدخله عن محمد بن رافع قال : قلت لأبي عامر : كان الثوري يدلس ؟ قال : لا ، قلت : أليس إذا دخل كورة ـ أي مدينة ـ يعلم أن

أهلها لا يكتبون حديث رجل ، قال : حدثني رجل ، وإذا عرف الرجل بالاسم كنّاه ، وإذا عرف بالكنية سمّاه ؟ قال أبو عامر : هذا تزيين وليس بتدليس[(١)] » .

وبهذا أجاب ابن الوزير اليماني عن تدليس سفيان وأمثاله فقال :

« إنه كان يدلس عن رجال يخاف من التصريح بأسمائهم فتنة أكبر من ستر أسمائهم ، مع ملاحظة أن في هذا الحديث حكماً يجب العمل به لما له من التوابع والشواهد وليس المدلَّس عنه من الضعف بمكان ، ولولا هذه الضرورة وأمثالها لما دلس أكابر الثقات من أهل الديانة والأمانة والنصيحة لله ولرسوله ﷺ ولجميع أهل الاسلام[(٢)].. » .

ومن هنا نجد في كتب الجرح والتعديل أقوال العلماء في توثيقه وتعديله مع إثبات هذا التدليس عنه ، فقد قال الذهبي في الميزان :

« سفيان بن سعيد (ع)[(٣)] الحجة الثبت متفق عليه

---

(١) انظر التدريب ص ١٤٥ .
(٢) التنقيح (ج ٣٦٨/١) .
(٣) هذا رمز لمن أخرج له أصحاب الكتب الستة .

مع أنه كان يدلس عن الضعفاء ولكن له نقد وذوق ، ولا عبرة بقول من قال : يدلس ويكتب عن الكذابين(١).

ولئن كان في قول الذهبي إثبات لتدليسه ، فإن العلماء اختلفوا في معنى قوله : « يدلس عن الضعفاء » .

ففسرها ابن الوزير اليماني : بالضعفاء الذين ينجبر حديثهم بالشواهد ويجب العمل به ، وهذا بناء على قوله بأنه « ليس كل ضعيف مجروحاً(٢) » .

وخالفه في ذلك الشارح الصنعاني ، وقال : إن معنى ذلك : يدلس عن ضعفاء مجاريح غير كذابين ، ويقول الصنعاني عن عدالة من يدلس عن هؤلاء : يقبل من يدلس عنهم وإن كانوا مجاريح ، فهو جرح لايخرجون به عن الاعتبار.

كما فسرها الشيخ أحمد الصديق الغماري رحمه الله : بأن سفيان يدلس عن الضعفاء عند غيره ، وفي حكم غيره وميزانهم ... ويقول :

« يستفاد من قوله ـ الذهبي ـ « له نقد وذوق »

---

(١) الميزان (ج ٢٩٦/١) .
(٢) تنقيح الأفكار (ج ١٨٩/١) .

أنه على فرض تدليسه عن الضعفاء عنـده أيضاً ، لايدلس عنهم إلا ماكانَ ثابتاً قوياً ... من أحاديثهم ، لا ماكان ساقطاً أو متروكاً[١] » .

ونقل الصنعاني عن البقاعي قوله :

« سألت شيخنا – يريد الحافظ بن حجر – هل تدليس التسوية جرح ؟ قال : لاشك أنه جـرح ، فانه خيـانة لمن ينقل إليهم وغرور ، فقلت : كيف يوصف به الثوري والأعمش مع جلالتها !؟ فقال :

أحسن مايعتذر به في هذا الباب : أن مثلها لايفعل ذلك إلا في حق من يكون ثقة عنده ضعيفاً عند غيره[٢]» .

وادعى بعضهم شهرة سفيان بالتدليس ومنهم – ابن خلدون – أثناء كلامه عن أحاديث المهـدي ، يقول عن سفيان : « مشهور بالتدليس[٣] » .

والحق أن سفيان لم يكن كثير التدليس حتى يشتهر به ، فهذا هو البخاري – شيخ المحدثين – يقول عن سفيان :

---

(١) ابراز الوهم المكنون ص ١١٨ .
(٢) التوضيح (ج ١/٣٧٥) .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٩ .

ما أقل تدليسه !!

ويقول الحافظ ابن حجر في التقريب عن سفيان : ربما كان يدلس ، فليس إطلاق الشهرة عليه بذلك إلا تهوراً من ابن خلدون لامبرر له - مع أن عدالة رجال الصحيحين من مذهب ابن خلدون نفسه - وسفيان بلا شك من رجالها ورجال كل كتاب حديثي ... فكيف يجوز لمثل ابن خلدون أن يطلق عليه هذا ليبرر تركه لحديث المهدي !!؟

كما تمسك بظاهر كلام الذهبي وغيره وأساء فهمه أناسٌ حادوا عن الصواب فطعنوا بسفيان أمير المؤمنين في الحديث ، ومن هؤلاء - محمد غلاب - في كتابه : التصوف المقارن ، وأسوأ من ذلك - عبد الله الخنيزي - صاحب كتاب : أبو طالب مؤمن قريش ، فلقد كال هذا لسفيان من التُّهَمِ ما كال ، وأوغل في جرحه .

فلقد نقل خلافاً في سنية سفيان وتشيعه وزيديته ، ولا يهمنا هذا القول بعد أن رأينا سنيته الواضحة في حديثنا عن عقيدته ...

ولقد طعن في سفيان لمجرد روايته عن - الصلت ابن دينار الأزدي - وهو ممن اختلف فيه جرحاً وتعديلاً...

وكأنه يجهل أو يتجاهل بمـاذا يجرح الرجل ، ومتى يترك حديثه ؟ ومن من الأئمة خلا من الرواية عن ضعيف !؟

كما نرى المؤلف يطعن بسفيـان لقوله : « لو أردنا أن نحدثكم بالحديث كما سمعناه ماحدثناكم بحديث واحد » .

وهذا كلام واضح في جواز الرواية بالمعنى عند سفيان وغيره من العلماء كما مر بنا سـابقاً في الحديث عن طريقة سفيان في تحمل الحديث وأدائه ... فهل في هذا مجال للطعن!؟ وما أكثر مانقل عن الصحابة والتابعين أمثال هذا القول!!

كما خان المؤلف أمانة النقل حيث ذكر عن سفيان أنه « يكتب عن الكذابين » وأحال في ذلك على كتاب الميزان للذهبي ص ٣٩٦ ، ودلائل الصدق (ج ١/٣٤) ، وليس هذا من الصدق في شيء ، فقد نقلت سـابقاً قول الذهبي الذي يقول فيه : « ولا عبرة لقول من قال : يدلس ويكتب عن الكذابين » .

فهل يؤثر هذا في عدالة سفيان المجمع عليها ؟!

وجميل أن أختم كلامي هذا عن تدليس سفيان بقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في مقدمة « طبقات المدلسين »

وهو يعدد مراتب المدلسين وينقل كلام الحافظ العلائي يقول:

« الثانية : من احتمل الأئمة تدليسه وأخرجوا له في الصحيحين لامامته وقلة تدليسه في جنب ماروى كالثوري... ثم يذكر في هذه الطبقة : الأمام النخعي ـ وحماد بن أبي سليمان ـ والحسن البصري ـ وابن عيينة ـ والأعمش ـ ويحي بن أبي كثير ـ » فهل يظن عاقل أن هذا يؤثر في عدالة هؤلاء الأعلام !!؟

وبهذا يظهر لنا سفيان الحجة الثبت الثقة الذي لاتجرح فيه صفته بالتدليس ، ولا تؤثر عليه أقوال الجاهلين والمغرضين كما توهم بعضهم ـ رحمه الله ورضي عنه ـ .

ـ ـ ـ

البَابُ الثالِثُ

وهو في حياة سفيان العملية ، ويقع في فصلين :

الفصل الأول : حياته الخاصة .

الفصل الثاني : حياته العامة .

– – –

قال الامام أبو حنيفة رحمه الله :

« الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إلي من كثير من الفقه ، لأنها آداب القوم » .

الفصل الأول

حياة سفيان الخاصة

عمله بعلمه :

يقول سفيان :

« يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل[١] » .

كثيراً مانلاحظ في حياة الناس اليوم الانفصال الكبير بين العلم والعمل ... فما أكثر العلماء والحفاظ ! وما أقل تطبيق كثير منهم لما حصلوا عليه من علم ، وتحلوا به من حفظ !!

ولهذا خسر كثيرو ، اليوم بركة العلم في الدنيا ، وحاق بهم الوعيد في الآخرة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ... »[٢] .

---

(١) الإحياء للغزالي (ج ١/٦٥) .
(٢) الآية /٣/ من سورة الصف .

وروى الشيخان عن أسامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مررت ليلة أسريَ بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون »(١) .

كما سلم سلفنا الصالح من هذا الداء الوبيل ، فلم يعرفوا هذا الانفصال بين العلم والعمل في حياتهم ، فكانوا علماء عاملين ، وهكذا كان عالمنا سفيان الثوري رضي الله عنه . فلم يكن عنده العلم إلا وسيلة لخشية الله سبحانه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(٢) .

روى أبو نعيم بسنده عن سفيان أنه قال : « إنما فضل العلم على غيره ليتقى الله به »(٣) .

---

(١) جمع الفوائد (ج ٢/٣٧٠) ، ورواه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ثم قال : رواه البخاري ومسلم واللفظ له ، ورواه ابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي .

(٢) الآية /٢٨/ من سورة فاطر .

(٣) الحلية (ج ٦/٣٦٢) .

وكان يقول :

« ليس طلب العلم فلان عن فلان ، إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل[١] » .

كما وضح الثوري العلم ومراحل طلبه ، فهو عنده يبدأ بالطلب ، وينتهي بالنشر ، وفيما بين ذلك حفظه وتطبيقه فقال في حديثه عن العلم :

« إنما هو طلبه ، ثم حفظه ، ثم العمل به ، ثم نشره[٢] » فليس العلم عند سفيان للحفظ والنشر فحسب ، وإنما هو للعلم والعمل ، والتطبيق والنشر ...

وقد شهد له علماء عصره بالتطبيق الكامل ، وبروزه في هذا المضمار ، فقال مؤمل : « مارأيت عالماً يعمل بعلمه إلا سفيان[٣] » .

ويقول فيه الامام الأوزاعي :

« لو قيل لي اختر رجلاً يقوم بكتاب الله وسنة

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٥٨) .
(٢) « (ج ٦/٣٦٢) .
(٣) « (ج ٦/٣٥٩) .

رسول الله ﷺ لاخترت لهما الثوري[١] » .

وكان سفيان يتخوف من فتنة العلم فيبتعد بـه عن غايته الأساسية ، فيبكي على نفسه ويشعر بثقل العلم ومسئوليته، إذ يكون حجة عليه أمام الله ، فيقول :

« وددت أن أنفلت من هذا الأمر لا لي ولا عليّ[٢]».

ويقول أيضاً :

« لو لم أعلم لكان أقل لحزني[٣] » .

وينبه الناس ويحذرهم من فتنة العلم والحديث ، فيقول:

« الحديث أكثر من الذهب والفضة وليس يدرك ، وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة[٤] » .

وصدق سفيان : فكم في النـاس من مفتتن بعلمه ، مغرور بتحصيله !! وما أكـثر هؤلاء في بيئات تفتقر إلى العلم والعلماء !!.

ولم يكن تخوف سفيان هذا يمنعه من الاستزادة في العلم ، والنهل من موارده ، بـل كان يحرص عليه ويدعو

(١و٢) الحلية (ج ٦/٣٥٨) .
(٣و٤) الحلية (ج ٦/٣٦٣) .

للعلم والعمل ، ويحذر أن يقف أحدهما دون الآخر ..

روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن عبدالله بن المبارك أن سفيان سئل : طلب العـــلم أحب إليك يا أبا عبد الله أو العمل ؟ فقال :

« إنما يراد العلم للعمل ، لاتدع طلب العلم للعمل ، ولا تدع العمل لطلب العلم[١] » .

فما أجمل هذه التوفيق بين الأمرين ! ! والتوازن بين الجانبين !!

. . .

اهتمامه بالسنة :

مر بنا تحذير سفيان الثوري من البدع وأهلها في حديثنا عن عقيدته ، وقرأنا قوله هناك :

« لايستقيم قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول ولا عمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة[٢] »

---

(١) الحلية (ج ١٢/٧) .
(٢) « (ج ٣٢/٧) .

ولقد كان من حرص السلف رضوان الله عليهم على السنة النبوية أنهم كانوا يحرصون على التأسي بالرسول الكريم ﷺ في كل شيء ، لايفرقون من حيث الامتثال بين الواجب والمندوب ، كما لايفرقون من حيث الترك بين الحرام والمكروه ، وإنما ينظرون إلى ذلك كله نظرتهم لأمر طلبه الشارع ورغب به ، أو حرمه وكرهه ...وهذا هو موقف المؤمنين الصادقين ، قال تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »[1] .

وقد ذكر الامام أحمد بن حنبل رحمه الله بسنده عن عبد الرزاق أنه قال :

« أراد رجل أن يقلم أظافره عند سفيان ، وكان يوم الخميس ، فقال له رجل : لو تركته إلى غداة الجمعة . فقال سفيان : لاتؤخر السنة لشيء[2] » .

عبادته :

ليست العبادة عند سفيان بكثرة الصلوات وعدد

---

(١) الآية /٣٦/ من سورة الأحزاب .

(٢) الورع ص ١١٤ .

الركعات فحسب ، وإنما هي تقوى الله عز وجل في كل حال ...

قال محمد بن يوسف الفريابي : « قلت لسفيـــان : أرى الناس يقولون سفيان الثوري ، وأنت تنام الليل ؟ فقال سفيان : اسكت ملاك هذا الأمر التقوى(١) » .

ولا يعني هذا أن سفيان كان مقصراً في العبادات ، فلقد كان يكثر منها أيضاً ، حتى قال يحي بن سعيد القطان :

« كان سفيان ماشئت من صلاة وقراءة ، فاذا جاء الحديث ، فكأنه ليس الذي كان(٢) » . ولا غرابة : فان العلم عند سفيان ضرب من ضروب العبادة ...

وتَغَدَّى مرةً وأتى برطب ، فأكل ، ثم قام إلى الصلاة فصلى مابين الظهر والعصر ثم قال : إذا زدت في قضيم الحمار فزد في عمله(٣) ...

وكان يوصي بصلاة التهجد ويهتم بها ، قال محمد بن يوسف :

---

(١) الحلية (ج٧/٩) .
(٢) التقدمة ص ٦٥ .
(٣) التقدمة ص ٨٥ ، ٧٦ .

« كان سفيان يقيمنا بالليل ، ويقول : قوموا ياشباب صلوا مادمتم شباباً[١] » .

ومن حرصه على العبادة أنه رؤي يوم جمعة وعليه كساء وهو راكب حماراً ، فقال واحد لآخر ما بال سفيان اليوم ركب حماراً ؟ فقال : حُمَّ اليوم فكره أن يترك الجمعة ، فبعث إلى جاره فاستعار حماراً ، فركب[٢] » .

وكان من عبادته أنه يكثر من قراءة القرآن الكريم، قال أبو خالد : صحبت سفيان في طريق مكة ، فكان يقرأ في المصحف كل يوم ، فاذا لم يقرأ فيه فتحه ، فنظر فيه وأطبقه[٣] .

وروى أبو نعيم عن الوليد بن عقبة : أن سفيان كان يديم النظر في المصحف ، فيوم لاينظر فيه يأخذه فيضمه على صدره[٤] .

وكان يلزم نفسه بقراءة شيء معين كل يوم ، روى

---

(١) التقدمة ص ٩٦ .
(٢) « ص ١٠٣ .
(٣) « ص ٨٦ .
(٤) الحلية (ج ١٩/٧) .

عبد الرزاق : أن الثوري جعل على نفسه لكل ليلة جزءاً من القرآن وجزءاً من الحديث ، قال : فيقرأ جزأه من القرآن ثم يجلس على الفراش ، فيقرأ جزأه من الحديث ثم ينام[١] .

وذكر أبو زيد عبثر قال :

إن بني ثور اجتمعوا على سفيان وهو شاب يناشدونه مما كان فيه من العبادة ، أي : اقصر عن هذا[٢] .

وقال إسحق بن إبراهيم : كنا في مجلس الثوري وهو يسأل رجلاً رجلاً عما يصنع في ليله ، فيخبره حتى دار القوم ، فقالوا : يا أبا عبد الله قد سألتنا فأخبرناك ، فأخبرنا أنت كيف تصنع في ليلك ؟ فقال :

لها عندي أول نومة تنام ماشاءت لا أمنعها ، فإذا استيقظت فلا أقيلها والله[٣] .

وكان كثير الدعاء ـ لأن الدعاء مخ العبادة ـ وكان

---

(١) المقدمة ص ٢١٦ .
(٢و٣) الحلية (ج ٧/٦٠)

رقيق القلب ، يقول عبدالرحمن بن مهدي :

« ماعاشرت في الناس رجلاً هو أرق من سفيان ، قال : وكنت أرافقه الليلة بعد الليلة ، فما كان ينام إلا في أول الليل ، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي : النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات - كأنه يخاطب رجلاً في البيت - ثم يدعو بماء إلى جانبه ، فيتوضأ ثم يقول على إثر وضوئه :

« اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم بما أطلب ، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار ، اللهم إن الجزع قد أرقني من الخوف فلم يؤمني ، وكل هذا نعمتك السابغة علي ، وكذلك فعلت بأوليائك وأهل طاعتك ، إلهي : قد علمت أن لو كان لي عذر في التخلي ماأقمت مع الناس طرفة عين .

ثم يقبل على صلاته ، وكان البكاء يمنعه من القراءة ، حتى إني كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه .

قال ابن مهدي : وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياءً وهيبة منه[1] » .

• • •

(١) الحلية (ج ٧/٦٠) .

زهـــده :

ساء مفهوم الزهد عند كثير من النـاس ، فذهبوا فيه مذاهب شتى أبعدتهم عن الزهد الحقيقي الكامـل الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ...

وتنبيهاً لهذا الخطأ القديم في معنى الزهد نجد سفيان الثوري يعرفه فيقول : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبا(١) .

ولما سئل : أيكون الرجل زاهداً وله مال ؟ قال: نعم ، إن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر(٢) .

وقد كان سفيان رحمه الله زاهداً بهـذا المعنى ، إن أعطي شكر ، وإن حرم صبر ، وكان يميل في حياته إلى التقشف في الحياة ، والاقلال من الدنيـا ، حتى قال علي ابن ثابت :

« لو أن معك فلسين تريد أن تتصدق بها ثم مررت على سفيان ـ وأنت لاتعرفه ـ لظننت أنك لاتمتنع من أن

---

(١) الحلية (ج ٣٨٦/٦) .
(٢) « (ج ٣٨٧/٦) . وكتاب الورع ص ١١٢ .

تضعها في يده ، ورأيت سفيان في طريقه إلى مكة فقومت كل شيء عليه حتى نعليه - بدرهم وأربعة دوانيق -(١) .

وجاع سفيان مرة جوعاً شديداً ، حتى مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئاً ، فمر بدار فيها عرس ، فدعته نفسه إلى أن يدخل فعصمه الله تعالى ومضى إلى منزل ابنته ، فأتته بقرص فأكله وشرب ماء ، فتجشى ، ثم قال :

سيكفيك عما أغلق الباب دونه ... وضَنَّ به الأقوام ملحٌ وجردق
وتشرب من ماء فرات وتغتدي ... تعارض أصحاب الثريد المليق
تجشى إذا ما هم تجشوا كأنما ... ظللت بأنواع الخبيص تفتَّق(٢)

وكان ينشد بيتين لابن حطان :

أرى أشقياء الناس لا يسألونها ... على أنهم فيها عراة وجوَّع
أراها وإن كانت قليلاً كأنها ... سحابة صيف عن قليل تقشع(٣)

كما كان يتمثل بالبيتين التاليين :

نروح ونغـــدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مـــع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجـــة ما بقي(٤)

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٧٨) .
(٢) « (ج ٦/٣٧٣) .
(٣) « (ج ٦/٣٧٤) .
(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٩٨ .

وقد شهد لزهد سفيان كثير من العلماء ، فقال أحمد ابن يونس :

« مارأيت أحداً أعلم من سفيان ، ولا أورع من سفيان ، ولا أفقه من سفيان ، ولا أزهد من سفيان[١] » .

وما كان زهد سفيان ليمنعه من العمل والاتجار ، فقد كان يعمل ويتاجر ، ويدعو للعمل ، ويحذر من التخلف عنه :

قيل للامام أحمد بن حنبل : الثوري لأي شيء خرج لليمن ؟ قال : خرج للتجارة ، وللقاء معمر ، قلت : قالوا : كان له مائة دينار ، قال : أما سبعون فصحيحة[٢] » .

وكان يقول :

« لأن أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها ، أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس[٣] » .

وقد اشتهر بكثرة تقديره للعمل بين الناس ، فقد روى الامام أحمد أن شميطاً كان يقول لأناس يعملون بسقي

(١) الحلية (ج ٣٥٩/٦) .
(٢) الورع ص ١٣ .
(٣) الحلية (ج ٣٨١/٦) .

الماء : لو رآك سفيان لقرت عينه ـ أي بسبب عمله وكسبه ـ(١)

وكان يقول : عليك بعمل الأبطال ـ الكسب من الحلال ، والانفاق على العيال(٢) .

ودخل مرة في البصرة على يوسف بن عبيد ، فإذا فتيان كأن على رؤوسهم الطير ، فقال : يامعشر القراء : ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق ، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس ، فرفع يوسف رأسه إليهم فقال : قوموا ، فلا أعلم أحداً منكم جالسني حتى يكسب معاشه من وجهه فتفرقوا(٣) ...

وكان يرى في المال والعمل بعداً عن السلاطين والولاة والحاجة إليهم ، وحفظاً للعزة والكرامة التي يجب أن يتحلى بها العلماء ...

روى أبو نعيم أنه قال :

« إن عامة من داخل هؤلاء ـ يعني السلاطين ـ إنما دفعهم إلى ذلك العيال والحاجة ، وقال : كانت له بضاعة

---

(١) الورع ص ١٣ .
(٢) الحلية (ج ٦/٣٨١) .
(٣) « (ج ٦/٣٨٢) .

مع بعض إخوانه وكان يقول : ما كانت العدة - أي المال المُعَدّ - في زمان أصلح منها في هذا الزمن[١] » .

وجاء إليه رجل وقال له : يا أبا عبدالله تمسك هذه الدنانير ؟ فقال : اسكت ، لولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك[٢] .

وقد توفي سفيان وخلف مالاً وتركة ، قال وكيع : وكان سفيان يلبس الفرو ويلبس العباء ، ومات وله بضاعة مائة وخمسون ديناراً[٣] » .

وكان من زهده أنه زهد في المناصب العالية في الدولة وكان يقول في ذلك :

« مارأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ، ترى الرجل يزهد في المال والثياب والمطعم ، فاذا نوزع في الرياسة حامى عليها وعادى ... »[٤] .

وكان يبتعد عن تولي المناصب ، ويدعو لذلك إخوانه ،

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٨٠) .
(٢) « (ج ٦/٣٨١) .
(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٠٥ .
(٤) الورع ص ٥٩ .

فلقد لقي سفيان مرة شريكاً بعد أن ولي القضاء ، فقال له :

« يا أبا عبد الله بعد الاسلام والخير صرت إلى الدخول في القضاء ؟! فقال له شريك : يا أبا عبد الله : بُدٌ للناس من قاضي ؟ فقال له سفيان : بُدٌ للناس من شرطي[١] ؟

• • •

تواضعه :

ليس التواضع عند سفيان أن يكون المرء مستوراً مجهولاً ، أو ذليلاً مستصغراً ، وإنما التواضع تواضع النفس، فلا يرى الانسان لنفسه ميزة على إخوانه ، ولا يحب الشهرة بين الناس .

قال الفضل بن مهلهل : قال لي سفيان : فيمَ السلامة؟ قلت : أن لاتعرف . قال : هذا مالا يكون ، ولكن السلامة في أن لاتحب أن تعرف[٢] .

وكان يستصغر نفسه ، فلقد رؤي مرة في مكة وقد

---

(١) الورع ص ١١٥ .
(٢) الحلية (ج ١٣/٧) .

كثر عليه الناس من حوله ، فقال : ضاعت الأمة حين احتيج إليّ[١] .

وكان لا يتصدر مجلساً ، ولكنه يجلس بين عامة الناس ، حتى قال في ذلك علي بن ثابت : مارأيت سفيان في صدر مجلس قط ، كان يقعد إلى جانب الحائط ، ويجمع بين ركبتيه[٢].

وقد اشتهر بتواضعه ، واختبره فيه إبراهيم بن أدهم مرة ، روى أبو نعيم أن إبراهيم بن أدهم امتحن تواضعه مرة فقال : لما قدم سفيان بيت المقدس ، أرسل إليه إبراهيم بن أدهم فقال : تعال حدثنا ، فقيل له : يا أبا إسحق : تبعث إليه بمثل هذا ؟ قال : إنما أردت كيف تواضعه ، قال : فجاء فحدثهم[٣] » .

والجدير بالذكر هنا : أن تواضع سفيان لم يصل به إلى درجة الذل والاستصغار ، كما يفعل بعض من يدعي التواضع ويتصنعه ، لأن المؤمن عزيز كريم ، فمن أقوال سفيان في ذلك :

---

(١) الحلية (ج ٦/٣٨٢) .
(٢) » (ج ٦/٣٧٨) .
(٣) » (ج ٦/٣٦٧) .

« أحب أن أكون في موضع لا أعرف ، ولا أستذل[١] » .

وقال ابن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : « وددت أني أخذتُ نعلي هذه ثم جلست حيث شئت لا يعرفني أحد ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : بعد أن لا أستذل[٢] » .

ولشدة خوفه من الذلة ، كان يسكن بين معارفه من الناس الذين يعرفون قدره ، ويقول :
« لولا أن أستذل لسكنت بين قوم لا يعرفوني[٣] » .

. . .

ورعه ، ودقة محاسبته نفسه :

ورع سفيان هو الورع المعروف عند السلف : الوقوف عند الحدود ، والبعد عن الشبهات ، والدقة في ملاحظة النفس ومحاسبتها .

ولقد كان إماماً في ورعه ، قال قتيبة بن سعيد : لولا سفيان لمات الورع[٤] .

(١و٢) الحلية (ج ٦/٣٨٨) .
(٣) » (ج ٧/٦) .
(٤) » (ج ٧/٢٠) .

وقد مر بنا قول الفضيل بن عياض عندما سئل عن ورعه ، أخبر : أن قدوته فيه سفيان الثوري .

ولشهرة سفيان بالورع ، كان يعرف به بين الناس ، ولقد مرت بنا قصته العجيبة في حديثنا عن تنقلاته ، أنه اشتغل أجيراً في بستان نخيل ، فلم يذق رطبه ، لأنه عامل يأبى على نفسه أن يذوق شيئاً من التمر بلا ثمن .

وكان سفيان لشدة ورعه ، يحاسب نفسه على الكبيرة والصغيرة والخاطر ، ومن عجائبه في ذلك ، أنه قال لجلسائه مرة :
اتقوا الشهوة الخفية : أقول لكم اذهبوا إلى عملكم ، وقلبي يشتهي لا تبرحون(١) .

وروى أبو نعيم أن شخصاً أهدى لسفيان ثوباً فرده عليه ، فقال له : يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده علي ، قال : علمت أنك ليس ممن يسمع الحديث ، ولكن أخاك يسمع الحديث مني ، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره(٢) ...

---

(١) الورع ص ٥٩ .
(٢) الحلية (ج ٧/٣) .

وحدث أخوه مبارك عنه قال :

« جاء رجل إلى سفيان ببدرة أو ببدرتين ، وكان أبو ذاك صديقاً لسفيان ، قال : يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء ؟ فقال : يرحم الله أباك كان وكان ، فأثنى عليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، قد عرفت كيف صار إلي هذا المال ، فأنا أحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك قال : فقبل سفيان ذلك ، وقام الرجل ، فلما كاد أن يخرج قال لي : يامبارك : إلحقه فرده علي ، فقال : يابن أخي أحب أن تأخذ هذا المال . قال له : ياأبا عبدالله في نفسك منه شيء ؟ قال : لا ، ولكن أحب أن تأخذه ، فما زال به حتى أخذه فذهب به ، قال مبارك : فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلك أي شيء قلبك هذا حجارة ! عد أن ليس لك عيال ، أما ترحمني ؟! أما ترحم إخوتك ! أما ترحم عيالنا وعيالك ؟ قال : فأكثرت عليه ، فقال : الله يامبارك ، تأكلها هنيئاً مريئاً ، وأسأل أنا عنها[١] ؟!

وخرج مرة سفيان مع إبراهيم بن أدهم ، وإبراهيم

---

(١) الحلية (ج ٣/٧) .

ابن طهمان إلى الطائف ، ومعهم السفرة فيها طعام ، فوضعوها ليأكلوا ، وإذا أعراب قريب منهم ، فناداهم إبراهيم بن طهمان: يا إخوتاه هلموا ، فقال لهم سفيان : يا إخوتاه مكانكم . ثم قال سفيان لابراهيم : خذ من هذا الطعام ماطابت به أنفسنا فاذهب به إليهم ، فإن شبعوا فالله أشبعهم ، وإن لم يشبعوا فهم أعلم . أخاف أن يجيئوا فيأكلوا طعامنا كله ، فتتغير نياتنا ، ويذهب أجرنا .. »[١] .

وكان يحاسب نفسه ويقول : « حرمت قيام الليل بذنب أحدثته خمسةَ أشهر[٢] » .

ولم يكن من ورعه أنه لا يأكل المباح ، ولا يتمتع به ، فقد رؤي مرة يأكل الطباهج وقال : إني لم أنهكم عن الأكل ، ولكن انظر من أين تأكل ، وارتحل وانظر على من تدخل ، وتكلم وانظر كيف تتكلم ، كيف أنهاكم عن الأكل والله تعالى يقول : « خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا »[٣] .

---

(١) الحلية (ج ٦/ ٣٨٨) .
(٢) » (ج ٧/ ١٧) .
(٣) » (ج ٧/ ٧٠) .

وكان يحاسب نفسه وإخوانه على ضياع الوقت، ويملأه بالعلم أو العمل، حدث عبد الرحمن بن مهدي قال:

« ربما نكون مع سفيان، فيقول: النهار يذهب ونحن في غير عمل، ثم يقوم فزعاً فما نراه يومنا »[١].

• • •

خوفه من الله تعالى:

إن الخوف والخشية من الله عز وجل صفة من صفات المؤمنين المتقين: قال تعالى: « الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون[٢] ».

وقال أيضاً: « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون »[٣].

ولهذا كان عالمنا سفيان خائفاً من الله كل الخوف، روى أبو نعيم بسنده عن أبي أسامة قال: مارأيت أحداً أخوف لله من سفيان[٤].

---

(١) التقدمة ص ٩٤.
(٢) الآية /٤٩/ من سورة الأنبياء.
(٣) « /٢٧/ » » المعارج.
(٤) الحلية (ج ٣٩٢/٦).

وكان سفيان يقول :

« كفى بالحسرة والندامة يوم القيامة لمن كان يعلم ولا يعمل[١] » .

وكان عندما يذكر الموت يغشى عليه ، ويرجف قلبه، ولا ينتفع به ، روى ابن أبي حاتم بسنده : أن سفيان كان إذا ذكر الموت مكث أياماً لاينتفع به ، فاذا سئل عن شيء قال : ماأدري ماأدري[٢] .

وكان عبد الله بن رجاء المكي يقول : «مارأيت أحداً أكثر ذكراً للموت من سفيان[٣] » .

وقال يحي بن اليمان : « كنت أرى سفيان الثوري مقنع الرأس يشتد في أثر جنازة العبد والأمة[٤] » .

وكان يخاف على نفسه من طلب العلم وفتنته ، ويقول :

« وددت أني أنفلت من هذا الأمر لا لي ولا علي، أنا اليوم أطلب العلم فلأي شيء هو ؟! »[٥] .

. . .

---

(١) الحلية (ج ٣٩٢/٦) .

(٢) التقدمة ص ٨٥ .

(٣) » ص ١٠٣ .

(٤) » ص ١٠٢ .

(٥) » ص ٦٢ .

صمته وتفكره :

وكان من شدة خوف سفيان من ربه ، ووجله من الحساب ، كثيراً مايصمت ، ويفكر في نتيجته ...

روى ابن أبي حاتم عن قبيصة أنه قال : كنا نأتي سفيان بعد العصر لايتكلم بشيء حتى يمسي ، ولقد أتيته ذات يوم فرأيت باب المسجد مردوداً ، وظننت أنه ليس في المسجد أحد ، فلما دخلت المسجد ، فاذا المسجد غاص بأهله، وهم سكوت ، وسفيان ساكت لايتكلم(١) .

وكان سفيان يطيل التفكر في أمر الآخرة ، قال يوسف : قال لي سفيان : ناولني المطهرة أتوضأ - ونحن في المسجد - فناولته ، فوضع يمينه على خده الأيمن ، ووضع يساره على خده الآخر ، ثم نمتُ ، فاستيقظت وقد طلع الفجر وهو على حاله ، فقلت : يا أبا عبد الله قد طلع الفجر، فقال : مازلت أفكر في أمر الآخرة منذ ناولتني المطهرة إلى الساعة(٢) .

---

(١) التقدمة ص ٩٨ .
(٢) » ص ٩٠ .

وأخبر محمد بن عصام عن أبيه : أن سفيان كان يأخذ في التفكر فينظر إليه الناظر ، فيقول : مجنون[١] .

وكان يحدث عن نفسه أنه كان يأخذ بالفكرة ، فيبول الدم .

. . .

طائفة من كراماته :

لاتكاد تقلب كتاباً في التراجم والطبقات إلا وترى التراجم مليئة بذكر الكرامات والخوارق التي أجراها الله على أيدي أوليائه وأصفيائه ...

ولا عجب من ذلك لأن الله تعالى إذا أحب عبداً كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، أعطاه إذا سأله ، وأعاذه إذا استعاذه ـ كما صح في الحديث الشريف ـ .

فما هذه الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه إلا علامات صدقهم معه وبشائر قربهم منه . ولا يعني هذا أنها مقياس الصلاح والتقوى ـ كما يتوهمه بعض العوام ـ ولكن

---

(١) التقدمة ص ٩١ .

المقياس إنما هو استقامتهم على أمر الله والرسول ... ولذلك اعتبر العلماء الاستقامة رأس كل كرامة ، فلا عبرة بمن طار عندهم في الهواء ، ولا من مشى على الماء إذا خالف حاله وفعله كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ...

واتباعاً لتلك الطريقة في التراجم ، أحببت أن أذكر طرفاً من كرامات سفيان رضي الله عنه . فمن ذلك :

أنه عندما أرسل أبو جعفر المنصور في طلب سفيان الثوري إلى مكة ، وكان أبو جعفر في طريقه إليها ، فالتجأ إلى الله ، وذهب إلى الكعبة المشرفة وأخذ برتاجها ، وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فلم يدخل أبو جعفر مكة إلا ميتاً(١) .

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الرحمن بن يعقوب ابن إسحق المكي ، قال :

حدثني شيخ من أهل هراة ، يقال له : عبد الله الهروي ـ رجل صدق ـ قال : دخلت زمزم في السحر فإذا بشيخ ينزع الدلو الذي يلي الركن ، فلما شرب أدخل الدلو ، فأخذته فشربت فضله ، فإذا هو سويق

(١) تهذيب النووي بتصرف (ج ١/٢٤٥) .

لوزٍ لم أذق سويق لوز أطيب منه ، فلما كان في القابلة رصدته ، فلما كان في ذلك الوقت ، دخل فسدل ثوبه على وجهه ، فنزع بالدلو مما يلي الركن ، ثم شرب وأدخل الدلو فأخذت فضله فشربت ، فإذا ماء مضروب بالعسل لم أشرب عسلاً قط أطيب منه ، قال : فأردت أن آخذ بطرف ثوبه ففاتني ، فلما كانت الليلة الثالثة قعدت قبالة باب زمزم ، فلما كان في ذلك الوقت ، دخل وقد سدل ثوبه على وجهه ، فدخلت فأخذت بطرف ثوبه ، فلما شرب ، أرسله ، قلت : ياهذا أسألك برب هذه البَنيَّة من أنت ؟ قال : تكتم علي حتى أموت ؟ قلت : نعم ، قال : أنا سفيان بن سعيد ، فأرسلته وشربت من الدلو فإذا لبن مضروب بسكر لم أر لبناً قط أطيب منه ، قال : وكانت الشربة تكفيني إذا شربتها إلى مثلها لا أجد جوعاً ولا عطشاً(١) .

وذكر عبد الرحمن بن مهدي : أنه لما مات سفيان ، أردنا أن ندفنه ليلاً من أجل السلطان ، فأخرجناه فلم ننكر الليل من النهار(٢) .

– – –

(١) الحلية (ج ٧/٧٣) .
(٢) الحلية (ج ٧/٧٥) .

الفصـل الثـاني

حياته العامة

بره بأبيه وابنه :

إن أخلاق سفيان الكريمة مع الناس جعلته إماماً لهم، ومرجعاً يرجعون إليه ، ويثقون بفتواه ...

فهو العالم المرشد لهم ، والمتألم لألمهم ، والباذل نفسه وعلمه لهم ، وقد كان من أخلاقه العامة التي اشتهر بها : بره بأبيه وابنه .

ولعل شهرته في ذلك دعت ابن أبي حاتم أن يبوب لهذا الخلق باباً خاصاً في معرض حديثه عن سفيان ، وذكر في ذلك روايتين مختلفتين تدل أولاهما على بره بأبيه .والثانية على بره بابنه .

روى ابن أبي حاتم عن ابن يمان يقول :

« تجهزت إلى مكة وسفيان بها ، فقال لي سعيد أبوه : قل لابني يقدم ، فلقيني سفيان فسألني عنه ، فقلت :

هو صالح ، ويقول لك أقدم . فتجهز للقـدوم ، ثم قال : « إنما سُمُّوا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء »(١) .

وفي نسخة أخرى كما أشارت إلى ذلك الحاشية : « قل لأبي ، فكأن طلب القدوم كان من ابنه ، ويشهد لها قول سفيان أخيراً : لأنهم بروا الآباء والأبناء .

وحدث محمد بن عصام عن أبيه عصام : أن عصاماً خرج يريد مكة للحج فودعه قبـل سفره ـ محمـد ـ ابن لسفيان الثوري . وكان عمره /١٠/ سنوات ، وقال : اقرأ مني السلام على أبي وقل له : أقدم فإني مشتاق إليه . فلما وافى عصام مكة ، وصار إلى سفيان وهو يحـــدث الناس مجتمعين عليه ، فلما نظر إليه أنس به ، حتى قال له ماقال ابنه : فقام سفيان من المجلس وطاف بالبيت ، وصلى خلف المقام ، وودع البيت وخرج نحو الأبطح والناس في طلبه ، فقال ياعصام : رُدَّ عني هؤلاء القوم فإني لا أحدثهم اليوم، فما زال حتى صرف أصحاب الحديث عنه ، حتى خلا بوجهه، فقال له عصام : أين تمضي ؟ قال : نحو المنزل إن شاء الله ـ أراد الكوفة ـ فقال له عصام :

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٢٥ .

بعد غَدِ التروية ، وبعده يوم الحج الأكبر ، ويوم النحر وتمضي وتدعه !! وهؤلاء الناس يأخذون عنك العلم فيبقى لك أجر من عمل بشيء منه ! فقال : أنا أعلم بهذا منك ، ولكن أتيتني بفرضٍ واجب أن أقضيه ، وتأمرني أن أقيم على نافلة وأضيع الفرض ؟! وإني مشتاق إلى ابني ، فإذا قمت في الموقف والمشاهد ، فادع لنا ، وإذا خرجت فاجعلنا طريقك إن شاء الله .

فخرج بلا زاد ولا صاحب ، قال عصام : فسألت عنه نفراً ، فأخبروني عنه أنه وافاها ذلك اليوم وصلى العيد بالكوفة ، ولقي ابنه بالمصلى ، ودخل منزله - رحمه الله -(١)!

• • •

رأفتـــه :

ومن أخلاق سفيان مع الناس أنه كان رءوفاً رحيماً بهم ، فقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن مبارك بن سعيد - أخا سفيان - تناول مملوكاً بالضرب ، وكان لسفيان فيه نصيب ، فقال سفيان : أتضرب المملوك ؟ نصيبي منه لك ، لا تعودن فيه(٢) .

---

(١) الحلية (ج ٧/٧٥) .
(١) التقدمة ص ٩٣ .

فلم يرض سفيان أن يضرب مملوك تحت ملكة، فتنازل عنه رحمة ورأفة !

• • •

جهـاده :

لم تكن حياة السلف ـرضوان الله عليهمـ مقصورة على العلم والتعليم ، والعبادة والذكر ... فقد كانوا يرون أنه لابد للمسلم من الجهاد الذي هو ذروة سنام الاسلام . فما كانت حياة أحدهم خالية عن جهاد أو مرابطة ، وإن اختلفت درجاتهم في ذلك .

فمنهم من يغلب عليه جانب الجهاد فيطغى على معظـم حياته ، كما عرف ذلك عن الامام عبد الله بن المبـــارك رحمه الله ، ومنهم من يغلب عليه جانب العلم والتعليم ، وجهاد الحكام والولاة كما غلب هذا على عالمنا سفيان ...

ومع هذا كله لم تخل حياته من رباط في سبيل الله ، فرابط في سبيل الله بعسقلان أربعين يوماً .

قال الفريابي :

« قدم سفيان الثوري بيت المقدس ، فأقام ثلاثة أيام،

وصلى عند باب الرحمة ، وعند محراب داود عليه السلام ، ورابط بعسقلان أربعين يوماً[١] » .

وسيأتي معنا قريباً جانب واسع من جهاده في العلم والتعليم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

• • •

تألمه من المنكر ونهيه عنه :

إن من علامات الحب في الله ، والبغض في الله - الذي كان أوثق عرى الايمان - أن يتألم المرء من المنكر إذا رآه ، وينفر من صاحبه ، وهذا هو المعيار الصحيح عند سفيان لهذا الأمر .

فعن يوسف بن اسباط قال : سمعت سفيان الثوري يقول :

« إذا أحب الرجل أخاه في الله عز وجل ، ثم أحدث حدثاً في الاسلام فلم يبغضه عليه ، فلم يحبه في الله عز وجل »[٢] .

(١) الحلية (ج ٧/٢٥) .
(٢) التقدمة ص ٩٠ .

وكان كثير التألم من من المنكرات ، حتى كادت تؤدي به إلى الهلاك ، روى يحي بن يمان : أنه لقي سفيان فقال : تدري من أين جئت ؟ قلت : لا ، قال : مررت بدار الصيدانيين ، فنهيتهم عن بيع الدادي(١) ، وإني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى ، فأبول دماً »(٢) .

ويقول أبو أسامة : اشتكى سفيان ، فذهبت بمائه في قارورة ، فأريته الديراني - يعني الطبيب - فنظر إليه ، فقال لي : بول من هذا ؟! ينبغي أن يكون هذا بول راهب ، هذا بول رجل قد فتَّت الحزن كبده ، ماأرى لهذا دواءً »(٣).

وكان يهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غيرة على دين الله ، لايداري في ذلك ولا يجامل ...

حتى قال يحي بن أبي غنية :

« مارأيت رجلاً قط أصفق وجهاً في الله عز وجل من سفيان الثوري »(٤) .

---

(١) هو حب يوضع في الماء ، فيصبح مُسْكراً .
(٢) التقدمة ص ١٢٤ .
(٣) « ص ٩٢ . وفي نسخة (فرث الحزن كبده) .
(٤) « ص ١٠٨ ، والحليه (ج ٧ /١٣) .

وما أكثر الناس الذين يدارون ويجاملون فيسكتون عن المنكرات ، فيفتحون بسكوتهم هذا مجالاً لثبوتها وانتشارها بين الناس ...

وحدث الوليد بن شجاع بن الوليد قال : قال أبي : « كنت أخرج مع سفيان الثوري ، فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً »(١).

ومن أقواله في ذلك :

« إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمعون ، فهو رجل سوء» قالوا لسفيان : كيف ذاك ؟ قال : يراهم يعملون بالمعاصي ، فلا يغير عليهم ، ويلقاهم بوجه طلق »(٢) .

وعن أبي المنذر قال : رأيت سفيان الثوري ورأى رجلاً يتوضأ بعدما أقام المؤذن الصلاة ، فقال : هذه الساعة تتوضأ ؟! لا كلمتك أبداً(٣) .

• • •

(١) الحلية (ج ٧/ ١٣) .
(٢) الحلية (ج ٧/ ٣٠) .
(٣) التقدمة ص ٩٦ .

موقفه من الولاة :

كان سفيان الثوري يبتعد عن الولاة ، ويحذر منهم لما يراه من ظلمهم وسكوت الناس عنهم .

وكان يرى أن النظر في وجه الظالم معصية ، والدعاء له خطيئة أخرى[١] .

روى الامام أحمد عن عثمان بن زائدة ، قال : قال لي سفيان :

« ياعثمان لاتجالس القاضي ، إذا قلت له عافاك الله ، فهو يرى أنك رضيت عمله ، وإذا قلت له: جزاك الله خيراً، فما بقي من الثناء ! »[٢] .

وعن أبي شهاب قال : قال الثوري :

« من لاق لهم دواة ، أو برى لهم قلماً فهو شريكهم في كل دم كان في المشرق والمغرب » . قال أبو شهاب : أصبحت وما يسرني أني صمت وحججت واعتمرت وعملت أنواع البر ، وإني قلت لبعضهم : كيف أصبحت ! » .

---

(١) الحلية (ج ٤٦/٧) .

(٢) الورع ص ٥٧ .

وكان يقول : إذا رأيت القارىء يلوذ بباب السلطان، فاعلم أنه لص ... »[1] .

وكان يقول :

« إذا دعوك لتقرأ عليهم : قل هو الله أحد ، فلا تأتهم » . ويقول :

« لو خيرت بين ذهاب بصري وبين أن أملأ بصري منهم لاخترت ذهاب بصري »[2] .

ولقد عرف الولاة ذلك منه :

قال أبو عبيد الله - وزير المهدي - :

« ما أعلقنا مخالينا هذه في عنق أحد إلا قضم منها إلا سفيان الثوري »[3] .

وقيل لسفيان مرة : لو دخلت عليهم ، قال : إني أخشى أن يسألني الله عن مقامي ماقلت فيه ؟ قيل : تقول وتتحفظ ، قال : تأمروني أن أسبح في البحر ولا تبتل ثيابي ؟!

(١و٢) الحلية (ج ٣٨٧/٦) .

(٣) الورع ص ١٠٦ .

وكان يقول : ليس أخاف ضربهم ، ولكنني أخاف أن يميلوا علي بدنياهم ، ثم لا أرى سيئتهم سيئة » .(١)

ولكن أمنية سفيان في البعد عنهم لم تتحقق له دائماً ، فكان يضطر أحياناً للدخول عليهم استجابة لطلبهم ، أو تذكيراً لهم بأمر من أمور المسلمين ، فقد كان صريحاً معهم وجريئاً ، وحذراً من أساليبهم ومكرهم .

قال عبد الرحمن بن مصعب :

« برز سفيان على الناس لأنه كان صحيح الأديم ، بعيداً عن الأهواء ، يقول الحق ويريده إن شاء الله »(٢).

وكان يرى أنه تجب شروط فيمن يأمر الحكام بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فمن قوله في ذلك :

« لا يأمر السلطان بالمعروف إلا رجل عالم بما يأمر ، عالم بما ينهى ، رفيق فيما يأمر ، رفيق فيما ينهى ، عدل فيما يأمر ، عدل فيما ينهى »(٣) .

وقد كان يقول :

« مثل العالم مثل الطبيب ، لا يضع الدواء إلا على

---

(١) الحلية (ج ٧/٤٢) .
(٢) التقدمة ص ٩٥ .
(٣) الحلية (ج ٦/٣٧٩) .

موضع الداء »(١) .

وقد كانت له مواقف شهيرة في أمر الولاة بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، من ذلك مارواه الامام أحمد وغيره عن الفريابي أنه قال : سمعت سفيان يقول :

« دخلت على أبي جعفر بمنى ، فقلت له : اتق الله ، فانما أنزلت هذه المنزلة ، وصرت إلى هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً .

حج عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً ، وكان ينزل تحت الشجر ... قال : فقال لي :

إنما تريد أن أكون مثلك ؟ فقلت :

لاتكن مثلي ، ولكن كن دون ماأنت فيه ، وفوق ما أنا فيه . قال : فقال لي : اخرج ، فخرج الثوري من عنده(٢) .

ولما رجع الثوري إلى الكوفة ، جعل يأخذ على أبي جعفر مايفعل بالمسلمين من الجور والجبر والقهر ، فصبر عليه أبو جعفر مدةً ، ثم أمر بأخذه ، فخرج سفيان إلى

---

(١) الحلية (ج ٣٦٨/٦) .

(٢) الورع ص ١١٢ ، والتقدمة ص ١٤ .

الكوفة هارباً وذلك سنة /١٥٥/ هـ[١] .

ولما تيقن أبو جعفر أن الثوري لايعدل عن نهجه في نقد الحكومة ، ولا يبالي بمؤاخـذتها ، أراد أن يحبسه وينتقم منه انتقاماً تاماً ، فكتب إلى محمد بن إبراهيم ـ عامله على مكة ـ بحبس رجل من أبي طالب كان بمكة وبحبس ابن جريج ، وعباد بن كثير ـ والثوري ـ فحبسهم ، ثم أطلقهم من الحبس بغير إذن أبي جعفر ، فغضب عليه أبو جعفر[٢].

ويقول عبد الرزاق : قدمنا مكة ، وقدمها المهدي ، فحضرت الثوري وقد خرج من عنده ـ وهو مغضب ـ فقال :

« أدخلت آنفاً على ابن أبي جعفر ـ يعني المهدي ـ فقال لي : يا أبا عبد الله طلبناك فأعجزتنا ، فأمكننا الله منك في أحب المواضع إليه ، فارفع إلينا حوائجك . قال : فقلت : وأي حاجة تكون لي إليك ؟! وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعاً !!

فقال لي أبو عبيدالله ـ وزير المهدي ـ : ياأبا عبدالله

---

(١) انظر مقدمة تفسير الثوري ص ٢٤ .

(٢) الطبري (ج٣/٣٨٥) . انظر مقدمة تفسير الثوري ص٢٥ .

لاتكثر الفضول ، واطلب حوائجك من أمير المؤمنين ، فقلت:
مالي إليه من حاجة ، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي
خالد : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حج ، فقال لصاحب
نفقته : كم أنفقنا في حجنا هذا ؟ قال :
اثنا عشر ديناراً ، قال : أكثرنا ، أكثرنا ، أسرفنا
أسرفنا ... وعلى أبوابكم أمور لاتقوم لها الجبال الراسيات...
قال : فقال لي ابن أبي جعفر : ياأبا عبد الله : أفرأيت إن
لم أقدر أن أوصل إلى كل ذي حق حقه ، فما أصنع ؟
قال : تفر بدينك ، وتلزم بيتك ، وتترك الأمر
ومن يقدر أن يوصل إلى كل ذي حق حقه ...
قال : فسكت ، وقال لي أبو عبيدالله : أراك تكثر
الفضول ، إن كانت لك حاجة فاطلبها ، وإلا فانصرف ،
قال : فانصرفت »(١) .

ودخل سفيان مرة على أبي جعفر : فقال له ماحاجتك ؟
قال : « حاجتي أن لاتدعوني حتى آتيك »(٢) .

وقال له وزير المهدي مرة : شططت : تكلم أمير

---

(١) التقدمة ص ١١٠ .
(٢) » ص ١١٢ .

المؤمنين بمثل هذا ؟ فقال له سفيان :

اسكت ، ماأهلك فرعون إلا هامان . فلما ولى سفيان ، قال أبو عبيد الله : ياأمـــير المؤمنين : ائذن لي أضرب عنقه ، فقال له :

اسكت ، مابقي على وجه الأرض من يستحيـا منه غير هذا ... »[1] .

وحدث عطاء بن مسلم قال :

« لما استخلف المهدي : بعث إلى سفيان ، فلما دخل ، خلع المهدي خاتمه ، فرمى به إليه فقال :

يا أبا عبد الله ، هذا خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ، فأخذ الخاتم بيده وقال :

تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : أتكلم على أني آمن ؟ قال : نعم ، قال : لاتبعث إلي حتى آتيك ، ولا تعطني شيئاً حتى أسألك .

قال : فغضب من ذلك ، وهَمَّ به ، فقال له كاتبه أليس قد أمنته يا أمير المؤمنين ؟! قال : بلى .

فلما خرج حَفَّ به أصحابه فقالوا :

---

(١) الورع ص ٥٢ .

مامنعك يا أبا عبد الله ، وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ؟! قال :

فاستصغر عقولهم ، ثم خرج هارباً إلى البصرة(١)...

إلى غير ذلك من مواقف سفيان الكريمة الجريئة ، التي تمثل لنا شخصية سفيان القوية التي لاتهاب إلا الله ، والناطقة بكلمة الحق أمام السلطان ، والبصيرة بأساليب الحكام وغاياتهم ...

تنبيه لخطأ تاريخي :

تروي بعض الكتب عن سفيان الثوري موقفاً أو رسالة بينه وبين أمير المؤمنين الخليفة ـ هارون الرشيد ـ

ومن هذه الكتب : كتاب الإحياء للامام الغزالي وهو يبحث عن السلاطين وأمر السلف لهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر(٢) ...

وكتاب الحلية لأبي نعيم ، ذكر فيه موقفاً لسفيان يحكم فيه بين هارون الرشيد وزوجته(٣) ...

---

(١) الحلية (ج ٧/٤٠) .
(٢) الإحياء (ج ٢/٣٠٩) .
(٣) الحلية (ج ٦/٣٧٨) .

والغريب في هذا : أن سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ لم يعاصر حكم هارون الرشيد ، بل توفي سفيان قبل تولية الرشيد الحكم بتسع سنوات .

إذ مر معنا أن وفاة سفيان كانت سنة /١٦١/ هـ ، وإذا رجعنا إلى تاريخ تولي الرشيد للخلافة نجده سنة /١٧٠/هـ(١).

فكيف تم هذا اللقاء بينهما ؟!

إنه مما لاشك فيه : أن هذا خطأ وتصحيف، ولعل مرجعه إلى أحد أمرين :

١ ـ إما أن يكون التصحيف والتحريف جار على اسم سفيان ، والقصة جارية مع غير سفيان من العلماء الذين عاصروا الرشيد ، ولا يبعد ذلك عنهم ، لتوافر العلماء العاملين الناصحين للحكام في ذاك العصر ...

٢ ـ وإما أن يكون الخطأ والتحريف جار على اسم ـ هارون الرشيد ـ والقصة جارية مع غيره من الخلفاء كأبي جعفر والمهدي ، ونسبت إلى الرشيد خطأً ، ولا يبعد ذلك أيضاً ...

---

(٣) انظر رسالة فاكهة الأنام في تاريخ خلفاء العرب والاسلام للورا ق.

ولا أجد احتمالاً لثبوتها عن سفيان عن سفيان مع هارون الرشيد ، والله أعلم .

• • •

وعظ سفيان وتوصياته للناس :

كان سفيان الثوري رحمه الله رجلاً نصوحاً ، يتفقد الناس من حوله بالنصح ، ويتخولهم بالمواعظ ...

فلم يكن نصحه مقصوراً على الحكام والولاة ، وإنما كان لأئمة المسلمين وعامتهم ...

روى ابن أبي حاتم بسنده عن مصعب[١] :

« أن رجلاً أعمى كان يجالس سفيان ، فكان إذا كان شهر رمضان ، خرج إلى السواد فيصلي بالناس ، فيكسى ويوهب له ، فقال سفيان :

إذا كان يوم القيامة ، أثيب أهل القرآن من قرآنهم ويقال لمثل هذا : قد تعجلت ثوابك ...

فقال له الرجل : يا أبا عبد الله ، تقول هذا لي وأنا جليس لك ؟! قال سفيان :

---

(١) التقدمة ص ٩٩ .

إني أتخوف أن يقال لي يوم القيامة : إنه كان جليساً لك ، أفلا تنصحه ؟! .

وقال عبد الرزاق :

« كان رجل صحب الثوري ـ يقال له يوسف ـ إلى صنعاء ، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر ، فقال له الثوري :

ويحك يايوسف : شحطوك بغير سكين ، كيف إذا قيل يوم القيامة : أين أبو جعفر وأتباعه ، قمت فيهم[١] ؟!

وكتب رجل من إخوان سفيان إلى سفيان : أن عظني فأوجز ، فكتب إليه :

« عافانا الله وإياك من السوء كله ، يا أخي : إن الدنيا غَمُّها لايفنى ، وفرحها لايدوم ، وفكرها لاينقضي، فاعمل لنفسك حتى تنجو ، ولا تتوان فتعطب ، والسلام »[٢].

وقال وكيع : خرجنا مع الثوري في يوم عيد فقال: « إن أول مانبدأ به في يومنا هذا غض البصر »[٣].

---

(١) التقدمة ص ١١٤ .
(٢) الحلية (ج ٢٥/٧) .
(٣) « (ج ٢٣/٧) .

وكان يوصي ابنَ المبارك ويقول له : إياكَ والشهرة »[١]

وكان لسفيان رسائل طويلة نافعة في الوعظ ، جمع فيها كثيراً من العظات والوصايا الثمينة ... سأقتصر على سرد إحداها بنصها ، كما رواها ابن أبي حاتم في تقدمته[٢] ، وهي رسالة الثوري إلى عباد بن عباد :

« من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد ، سلام عليك ، فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد:

فاني أوصيك بتقوى الله ، فان اتقيت الله عز وجل كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً.

سألت أن أكتب إليك كتاباً أصف لك خِلالاً تصحب بها أهل زمانك ، وتؤدي إليهم مايحق لهم عليك ، وتسأل الله عز وجل الذي لك ... وقد سألت عن أمر جسيم ، الناظرون فيه اليوم ، المقيمون به قليل ، بل لا أعلم مكان أحد ، وكيف يستطاع ذلك ! وقد كدر هذا الزمان ، إنه ليشتبه الحق والباطل ، ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق ، فهل تعلم مكان أحد هكذا ؟!

(١) الحلية (ج ٧/٢٣) .
(٢) التقدمة ص ٨٦ وما بعدها ...

وكان يقال : يوشك أن يأتي على الناس زمان لاتقر فيه عين حكيم ، فعليك بتقوى الله عز وجل ، والزم العزلة واشتغل بنفسك ، واستأنس بكتاب الله عز وجل ، واحذر الأمراء ، وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم ، فان استطعت أن تأمر بخير في رفق ، فان قبل منك حمدت الله عز وجل ، وإن رد عليك أقبلت على نفسك ، فان لك فيها شغلاً .

واحذر المنزلة وحبها ، فان الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا ، وبلغني أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان ، وكان لهم من العلم ماليس لنا، فكيف بنا نحن أدركنا على قلة علم وبصر ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ، مع كدر الزمان وفساد من الناس .

وعليك بالأمر الأول والتمسك به ، وعليك بالخمول(١) فان هذا زمان خمول ، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس .

---

(١) معنى قوله : وعليك بالخمول : أي الزم التواضع ، ولا تحرص على الظهور وحب الرياسة ، وقد مر معنا في تواضعه أنه كان يقــول :

« لولا أن أستذل لسكنت بين أقوام لايعرفوني » .

فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

إياكم والطمع ، فان الطمع فقر ، واليأس غنى[١] ، وفي العزلة راحة من خلاط السوء .

وكان سعيد بن المسيب يقول : العزلة عبادة .

وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذلك والنجاة في تركهم فيما نرى[٢] .

---

(١) المراد باليأس هنا : القناعة ، ويظهر هذا من مقابلته بالطمع ...

(٢) لقد تكرر في وصيته هذه : حرصه على العزلة ، وترغيبه بها ، ولعل المراد بها هنا : قلة مخالطة الناس وخاصة الولاة والأمراء والأغنياء الذين يفسدون على المسلم دينه ، ويدل لذلك قوله بعد ذلك : « وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم » وقوله أيضاً فيها : « وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس » واستشهاده بقول عمر رضي الله عنه : وفي العزلة راحة من خلاط السوء ...

وهذا المنهج ـ العزلة ـ معروف مألوف عند بعض السلف لفشو المنكرات ، وإعراض الناس عن الدين ، وإن كان الأفضل منه بلا شك : الاختلاط مع الناس لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع نفسه عن الايذاء ، وصبر على الأذى ، كما بوب لهذا الامام النووي في رياض الصالحين ، ثم قال :

« اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته ـ أي في العنوان ـ هو المختار الذي كان عليه رسول الله =

وإياك والأمراء والدنو منهم ، وأن تخالطهم في شيء من الأشياء .

وإياك أن تخدع فيقال لك : تشفع فترد عن مظلوم أو مظلمة ، فان تلك خدعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلماً ...

وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل ، وفتنة العالم الفاجر ، فان فتنتها فتنةٌ لكل مفتون .

وما كفيت المسألة والفتيا ، فاغتنم ذلك ولا تنافسهم ، وإياك وحب الرياسة ، فان من الناس من تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لايبصره

= صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وكذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخيارهم ، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم ...

وبه قال الشافعي وأحمد وأكثر الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين ، قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » . والآيات في معنى ماذكرته كثيرة معلومة .. » .

انظر ذلك في رياض الصالحين : باب : فضل باب الاختلاط بالناس ... الخ .. » .

إلا البصير من العلماء السماسرة ، واحذر الرياء ، فان الرياء أخفى من دبيب النمل .

وقال حذيفة :

« سيأتي على النـاس زمان يعرض على الرجل الخير والشر فلا يدري أيما يركب ؟ » .

وقد ذكر عن رسول الله ﷺ قال : لاتزال يد الله عز وجل على هذه الأمة ، وفي كنفه وفي جواره وجناحه مالم يمل قراؤهم إلى أمرائهم ، ومالم يبر خيارهم أشرارهم ، ومالم يعظم أبرارهم فجّارهم ، فاذا فعلوا ذلك رفعهـا عنهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وأنزل بهم الفاقة ، وسلط عليهم جبابرتهم ، فساموهم سوء العذاب ...

وقال :

إذا كان ذلك : لايأتيهم أمر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم عن ذلك ... » .

فليكن الموت من شأنك وبالك ، وأقل الأمل ، وأكثر ذكر الموت ، فانك إن أكثرت ذكر الموت هان عليك أمر دنياك .

وقال عمر : أكثروا ذكر الموت ، فانكم إذا ذكرتموه

في كثير قلَّله ، وإن ذكرتموه في قليل كثره ، واعلموا أنه قد حان للرجل يشتهي الموت .

أعاذنا الله وإياك من المهالك ، وسلك بنا وبك سبيل الطاعة » .

. . .

ومن وصاياه المتفرقة :

« يأخي عليك بالكسب الطيب ، وما تكسب بيديك» وإياك وأوساخ الناس أن تأكله أو تلبسه ، فان الذي يأكل أوساخ الناس مثله مثل عليه لرجل وسفله ليس له ، فهو لايزال على خوف أن يقع سفله وتهدم عليته .

فالذي يأكل أوساخ الناس ، هو يتكلم بهوى ، ويتواضع للناس مخافة أن يمسكوا عنه .

يأخي : إن تناولت من الناس شيئاً قطعت لسانك .

يأخي : جوعٌ وقليل من العبادة ، خير من أن تشبع من أوساخ الناس وكثير من العبادة ...

أخي : إياك أن تكسب خبيثاً فتنفقه في طاعة الله ،

فان تركه فريضة من الله واجبـة ، وإنه طيب لايقبل إلا طيباً .

أرأيت رجلاً أصاب ثوبه بول ، ثم أراد أن يطهره، فغسله ببول ؟ أترى كان ذلك يطهره ؟!

إن القذر لايطهر إلا بطيب ، فكذلك لاتُمْحى السيئة إلا بالحسنة ، وإن الله طيب لايقبل إلا الطيب ، وإنِ الحرام لايقبل في شيء من الأعمال .

أوَهَلْ عمل أحدٌ ذنباً فمحاه بذنبٍ(١) !؟

ومن وصاياه « أكرموا الناس على قدر تقواهم ، وتذللوا عند أهل الطاعة ، وتعززوا عند أهل المعصية ، واعلموا أن القراءة لاتحلو إلا بالزهد في الدنيا(٢) » .

إلى غير ذلك من مواعظ كريمة ، ووصايا جليلة متفرقة في تراجمه ...

• • •

كرمــــه :

ومن أخلاق سفيان مع الناس أنه كان سخياً جواداً،

---

(١) هذه مقتطفات من وصية طويلة أخرى لسفيان أوصى بها علي ابن الحسن ، ذكرها أبو نعيم بطولها في الحلية (ج٧/٧١ـ٧٢).

(٢) التقدمة ص ٩٠ .

ينفق عليهم ، ولا يأخذ منهم ... حتى كان ذلك يؤثر على نفوس بعض أصحابه .

فلقد روى أبو نعيم بسنده عن الفريابي ، قال :

« صحبت سفيان من عسقلان إلى المدينة ، فكان يخرج النفقة ونخرج معه جميعاً ، فيدفعها إلى رجل لينفق علينا ،

فكنا إذا وضعنا سفرتنا ، لم يرد أحداً من السؤال إلا أعطاه ، حتى لايبقى شيء ، فكان بعضنا إذا رآه يصنع ذلك ، يأخذ خبزه ويتنحى فيأكل[1] » .

إلى غير ذلك من أخلاق كريمة ، يقف عليها المتتبع لأقوال سفيان وأحواله ، والمتبصر في سيرته وأقواله ...

ولعل هذه الأخلاق الكريمة التي تحلى بها سفيان ، إضافة إلى علمه وحفظه جعلته إماماً مقتدىً به في علمه وأخلاقه ، وأنزلته تلك المنزلة الرفيعة في قلوب العلماء العاملين...

وحسبنا في هذا قول الامام أحمد رحمه الله في سفيان :

« لم يتقدمه في قلبي أحد » .

- - -

(١) الحلية (ج ٧/٢٥) .

الخاتمة

هذا هو سفيان الثوري - رضي الله تعالى عنه - في طرف من أخباره وأقواله، وفي جوانب من حياته العلمية والعملية ... أرجو أن يجد القارىء الكريم فيها أنموذجاً صافياً للشخصية المسلمة في حياة السلف الصالح ...

تلك الشخصية التي لاتعرف الافراط ولا التفريط، فلا يشغلها علم عن عمل، ولا عمل عن علم، ولا يطغى فيها جانب على حساب جانب ...

ولعل أبرز مانقف عليه في هذه الرسالة ذلك التوازن والتكامل في هذه الشخصية العظيمة ... فنجد سفيان الثوري ملماً بالعلوم المختلفة المتنوعة، مطبقاً لعلمه، يزينه الوعي العظيم، والخلق الكريم ...

ولكم شهدت أمتنا اختلالاً في ذلك التوازن المطلوب، فرأينا العلماء الذين يعتنون بعلم دون آخر، فيعرف هذا بعلم وآخر بغيره، وقلما يجتمع علمان أو أكثر في رجل واحد...

كما رأينا أيضاً العلماء الذين انفصل علمهم عن عملهم،

وافتقرنا إلى العالم العامل ، الواعي الخلوق ...

وما كان لعلم من العلوم ، أو جانب من الجـوانب أن يوصل صاحبه إلى تلك الدرجة العالية ، فيرفعـــه إلى إلى صفوف العلماء الأعلام ، ويلحقه بركب الأئمة المجتهدين ، مهما كان توسع هذا العالم في علمه كبيراً ... إذ لا يغني علم عن علم ، ولا جانب عن جانب ...

فما وصل سفيان الثوري وأمثال سفيـان من الأئمة الأعلام إلى ماوصلوا إليه من منزلة رفيعة في قلوب الخاصة والعامة إلا بعلومهم النافعة المتكاملة ، ووعيهم الكبير ، وأخلاقهم العظيمة ...

ولقد مر معنـا قول الامام الأوزاعي وهو يتحدث عن سفيان :

« لم يبق من تجتمع الأمة عليه بالرضا إلا سفيان ».

وما أعظم قول أبي جعفر المنصور حينما يعرض عليه وزيره قَتْلَ سفيان الثوري لما رآه من جرأته في الحق ، ومجابهته لأمير المؤمنين ، فيجيبه أبو جعفر :

« اسكت ، مابقي على وجه الأرض من يستحيا منه غير هذا » .

فهل حصل سفيان على هذه المكانة في نفس أبي جعفر ، وهو الذي وقف معه تلك المواقف الجريئة يأمره وينهاه إلا بأخلاقه وصدقه ، وجرأته في الحق ..؟

فلتكن حياة هؤلاء الأعلام أنموذجاً حياً لأهل العلم وطلابه ، وقدوة صالحة لمن يحب الكمال ويسعى إليه ...

وإذا نظرنا إلى سفيان الثوري من جانب وعيه وخلقه فنجد ذلك بارزاً في ثنايا أقواله وسلوكه العلمي والعملي ...

فهو العالم المجمع على علمه وفضله ، ولكنه لم يصل به ذلك الاجماع الصادق إلى درجة الغرور بنفسه ، مما يجعله يزهد بغيره ، ويتعالى على أقرانه وينكر على مخالفيـــه في الاجتهـاد ـ كما نجد ذلك في كثير من المنتسبين إلى العلوم اليوم ـ ...

وإنما كان يتواضع لهم ، ويحـــترم آراءهم ، ويربي تلامذته على ذلك الاحترام والتقدير للآراء العلمية المختلفة ، وحسبنا في بيان هذا مقالته الرائعة :

« إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قـد اختلف فيه ، وأنت ترى غيره ، فلا تنهه » .

فقد رَسَّخَ بذلك القاعدةَ الجليلةَ التي كاد أن يجمع عليها العلماء ، والتي وقفت حائلاً في تاريخ فقهنـا الاسلامي أمام المنازعات والشقاق ...

ولقد زلت أقدام عدد من العلماء قديماً وحديثاً عندما فقدوا هذا الجانب من الوعي ، فضاقت عقولهم ، وقصرت أفهامهم عن تصور تلك الاختلافات العلمية فجعـلوها سبباً للاختلافات العملية ، وحولوا النعمة إلى نقمة ...

كما أن سفيان الثوري ـ العالم المتواضع لغيره ، والمحترم لآراء مخالفيه ـ لم يصل به تواضعه الصادق إلى درجة الذل والهوان ، فيذل نفسه ، ويفقده الثقة بعلمـه ليستسلم لآراء غيره ، فلقد كان تواضعه في عزة ، كما كانت جرأته في ثقة...

فهو القائل لما كثر الناس من حوله ، وعظم عـدد الوافدين إليه لتلقي العلم عنه ، تلك الكلمة الرائعة الدالة على تواضعه العظيم :

« ضاعت الأمة حين احتيج إليّ » .

وهو القائل أيضاً في عزة وثقة :

« لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم » .

والقائل : « سلوني عن المناسك والقرآن فاني بها عالم » .

وهو الذي يقول عنه شعبة أحد أعلام الحديث :

« إذا خالفني سفيان في الحديث ، فالحديث حديثه ، وكان إذا حفظ الشيء لم يبال من خالفه » .

ولطالما ضاع العلم بين عالم استصغر نفسه ، وفقد الثقة بعلمه فانزوى على نفسه ، وبين عالم ابتلي بالغرور ، ورفع نفسه فوق مرتبته ، فأعرض الناس عنه ، وزهدوا بعلمه !!!

وما أكثر الجوانب العظيمة التي تتجلى للقارىء ، ويقف عليها الباحث أثناء دراسته لحياة سفيان العلمية والعملية!!!

ومما تجدر الاشارة إليه : أننا حين نبرز جوانب العظمة في حياة سفيان ، ونشيد بعلمه وأخلاقه ، لا نعني أبداً أن سفيان الثوري وأمثاله من الأئمة الأعلام وصلوا إلى درجة العصمة ، وتربعوا على كرسي الكمال ، إذ لم يدّع أحدهم ذلك لنفسه ، ولا يرضى نسبته إليه ...

فهم البشر المجتهدون ، المعرّضون للخطأ والصواب في اجتهاداتهم سواء منها الاجتهادات العلمية والعملية ، وحسبهم أنهم لا يعدمون في ذلك كله الأجر عند الله عز وجل . .

فما من معصوم بحق إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وما من كمال إلا في شخصية رسول الله ﷺ الذي ارتضاه الله للمؤمنين أسوة ، ولم يرتض لهم غيره فقال:

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ... » .

ولكنه مما لاشك فيه أنهم أقرب إلى الكمال من غيرهم ، وأحرص عليه في حياتهم ، كما يظهر ذلك في سيرتهم التي غلب عليها اهتمامهم بإحكام الأسوة بالرسول الكريم ﷺ ... فكانوا بذلك قدوة حسنة لغيرهم ، وهداة لأمتهم ينيرون لهم الطريق .

ولو أردنا تتبعَ أقوال سفيان ، واستقصاءَ أخباره وأحواله ، لطال علينا الأمر ...

وفيما سبق كفاية لمن أحب التعرف على سيرته ، وحرص على التأسي بطريقته ...

وما هذا الكتاب إلا مفتاح لذلك المجال الواسع أمام الباحثين وخطوة أولى أو خطوات في هذا الطريق النافع الهادي لمن أحب أن يتابع الطريق ، فيكشف لنا عن هذه

الكنوز الثمينة ، والدرر الدفينة في طيات الكتب المخطوطة والمطبوعة ...

وفي هذا المعنى يقول الامام أبو نعيم رحمه الله في حليته بعد أن توسع في ترجمة سفيان الثوري :

« كلامُ الثوري وأحواله ، وألفاظه ومواعظه ، تكثر وتتسع ، وفي دون ماذكرنا فوائد لمن رزق العمل به ، ووفق له ... » .

وفقنا الله جميعاً للسداد والرشاد ورزقنا الاتباع الكامل للرسول الكريم ﷺ ، لنلحق بركب سلفنا الصالح ... « أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ... » .

مُلحقٌ

في بيان أماكن تراجم الثوري وأقواله(١)

إن أقوال سفيان الثوري وأخباره موزعة متناثرة في كتب التراجم وغيرها من كتب الفقه والحديث ..

ولعل أبرز من ترجم له من يلي :

ابن سعد في الطبقات (ج ٦/٢٥٧ - ٢٦٠) .
البخاري في التاريخ الكبير (ج٢:٣/٩٣ - ٩٤) .
والصغير (١٨٦ و ١٨٧ و ٢١٦) .
ومسلم في المنفردات /٣٢/ .
وابن قتيبة في المعارف (٢١٧ ، ٢٦٨) .
وابن رسته في الأعلاق النفيسة /٢١٩/ .
والدولابي في الكنى (ج ٢/٥٦) .

---

(١) أخذ هذا الملحق من مقدمة تفسير الثوري للأستاذ امتياز علي عرشي ص ٣٩ ، تعميماً لنفعه ، وتسهيلاً على الباحث في الرجوع إلى أماكن الترجمة ، وسألحقه بمراجعي الخاصة في هذه الترجمة ...

والطبري في الذيل المذيل /١٠٥/ .
وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (ج٢: ١/٢٢٢-٢٢٥)
وتقدمة المعرفة (٥٥ - ١٢٦) .
وابن النديم في الفهرست (٣١٤) .
والحاكم في المعرفة (١٠٦، ١٦٥، ١٧٤، ٢٠٤، ٢٤٥).
والأزدي في المشتبه /١١/ .
والسلمي في الطبقات (١١٤ و ١٣١) .
وأبو نعيم في الحلية (ج٦/٣٥٦-٣٩٣) و (ج٧/٣-١٤٤).
وابن حزم في الجمهرة /٦٣/ ب .
والخطيب في تاريخ بغداد (ج٩/١٥١ - ١٧٤).
وابن ماكولا في الاكمال (ج ١/٥٦٨) .
وابن طاهر المقدسي في الجمع بين رجال الصحيحين
(ج١/١٩٤) . والأنساب (٢٧ و ١٧٩) .
والشهرستاني في الملل /٦٥/ .
والسمعاني في الأنساب /١١٧/ ألف ، وأدب الاملاء
/٦/ وغيرها ...
وابن الجوزي في صفوة الصفوة (ج ٣/٨٢ - ٨٤)
والتلقيح (٢٣٥) .
وابن الأثير (المحدث) في جامع الأصول (خ٢/٨٢٢ألف).

وابن الأثير (المؤرخ) في الكامل (ج ٦/ ٢٠) .
والقفطي في تاريخ الحكماء (٣٢٧) .
والنواوي في تهذيب الأسماء (٢٨٦ - ٢٨٨) .
وابن خلكان في الوفيات (ج ١/ ٢٩٦) .
وأبو الفداء في المختصر (ج ٢/ ٩) .
والتبريزي في الرجال /٢٣/ ب .
والذهبي في التذكرة (ج ١/ ١٩٠ - ١٩٣) .
والكاشف /٣٦/ ألف ، والدول (ج ١/ ٧٨) .
واليافعي في مرآة الجنان (ج ١/ ٣٤٥ - ٣٤٧) .
وابن كثير في البداية (ج ١٠/ ١٣٤) .
وشمس الدين الحسيني في مختصر مجمع الأحباب ص ٢٧٩ ألف إلى ص ٢٨٧ ألف .
والقرشي في الجواهر المضيئة (ج ١/ ٢٥٠) .
والقلقشندي في نهاية الأرب /٢٠١/ .
والجزري في الغاية (ج ١/ ٣٠٨) .
وابن العجمي في نهاية السول /١٢١/ ب .
والعسقلاني في التهذيب (٤/ ١١١ - ١١٥) ، والتقريب /١٥١/ والمدلسين /١٠/ .
والعيني في العمدة (ج ١/ ٢٦٠) .

والسيوطي في التلخيص /٤٥/ .
والخزرجي في الخلاصة /١٤٥/ .
والشعراني في اللواقح (ج ١/٥٢ - ٥٦) .
والفتني في الرجال /٨١/ ألف ، و ب .
والكفوي في أعلام الأخيار /٦٥/ ب إلى/٦٦/ ب .
والدهلوي في الاكمال /١١٦/ ب و /١١٧/ ألف .
والمناوي في الكواكب /١٠٤/ ألف إلى /١٠٥/ ب .
وابن العماد في الشذرات (ج ١/٢٥٠) .
والزركلي في الأعلام (ج ٣/١٥٨) .

وقد ذكره من علماء الشيعة :

الكشي في معرفة أخبار الرجال /٢٤٨/ .
والطوسي في الرجال /١١٠/ ب .
والحلي في الخلاصة /١٠٩/ .
والاستر آبادي في منهج المقال /١٥٤/ ألف .
واللاهجي في خير الرجال /٦٠/ألف إلى /٦١/ألف.

والكربلائي في منتهى المقال /١٤٨/ . (ا. هـ) .

إلى غير ذلك من أماكن مختلفة وكتب متنوعة ، إضافة إلى المصادر التي سأذكرها بعد هذا ...

والحمد لله رب العالمين

انتهى من كتابته في الرياض
محمد عبد الله أبو الفتح البيانوني
يوم الأربعاء /١٩/ من ذي القعدة ١٣٩١ هـ

. - - -

المراجع

إبراز الوهم المكنون لأحمد الصديق الغماري مطبعة القدسي بدمشق .
إحياء علوم الدين للغزالي مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٤٦ هـ.
الأعـــلام للزركلي الطبعة الثالثة .
الأمـــوال لأبي عبيد المطبعة العامرة ١٣٥٣ هـ بتحقيق الفقي.
بداية المجتهد لابن رشد نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٦ هـ.
تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن طبع مكتبة النهضة المصرية.
تاريخ بغـــداد للخطيب البغدادي مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩ هـ.
التحفـــة لعلاء الدين السمرقندي دار الفكر بدمشق .
التـــدريب للسيوطي بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
تفسير الثوري بتحقيق ونشر الأستاذ امتياز علي عرشي مدير مكتبة رضا ، رامبور ، الهند ١٣٨٥ هـ .
التقـــريب لابن حجر بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ.
التنقيـــح لابن الوزير اليماني بتحقيق محيي الدين عبد الحميد الطبعة الأولى ١٣٦٦ هـ مطبعة السعادة .
تهذيب الأسماء واللغات للنـــووي طبع المطبعة المنيرية .
توضيح الأفـــكار للصنعـــاني مطبعة السعادة ١٣٦٦ هـ .
الجرح والتعديل لابن أبي حاتم طبع دائرة المعارف النعمانية ١٣٧١ هـ.

جمع الفوائد لمحمد بن سليمان ، مع ذيله أعذب الموارد .
الحلية لأبي نعيم نشر دار الكتاب العربي ١٣٥٧ هـ .
الرسالة القشيرية للقشيري نشر مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٦٧ هـ .
رياض الصالحين للنووي طبع عبد الرحمن محمد ١٣٥١ هـ .
سبل السلام للصنعاني مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة .
سفيان الثوري للدكتور عبد الحليم محمود نشر دار البيان في الكويت عام ١٣٩٠ هـ .
شذرات الذهب لابن العماد مطبعة القدسي بمصر ١٣٥٠ هـ .
الطبقات لابن سعد طبع دار صادر في بيروت ١٣٨٠ هـ .

طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس لأبي العرب التميمي طبع الدار التونسية ١٩٦٠م تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي .

فاكهة الأنام في تاريخ خلفاء العرب والاسلام للوراق .
الفرق بين الفرق للاسفرائيني .
الفكر السامي للحجوي .
الفهرست لابن النديم مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
فيض الباري للكشميري مطبعة حجازي بالقاهرة نشر المجلس العلمي بالهند ١٣٥٧ هـ .
فيض القدير للمناوي طبع مصطفى محمد ١٣٥٦ هـ .
القاموس المحيط للفيروزبادي « « « ١٣٧٣ هـ .
الكواكب الدرية للمناوي نشر جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٧ هـ .
المروج للمسعودي طبعة المكتبة التجارية الكبرى ١٣٦٧ هـ .
مشكل الآثار للطحاوي .

مقدمة ابن خلدون لابن خلدون طبع المطبعة البهية المصرية .
الميزان الذهبي طبع عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢ هـ .

النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير للكنوي .
النجوم الزاهرة لابن تغري بردى نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
نيل الأوطار للشوكاني طبع مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأخيرة .
الورع لأحمد بن حنبل طبع محي الدين الكردي ١٣٤٠ هـ .
وفيات الأعيان لابن خلكان طبع مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧ هـ .

– – –

المحتوى

ضدر للمؤلف كتاب :

دراسات في الإختلافات الفقهية

تحت الطبع للمؤلف :

كتاب العبادة :

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤

حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤

بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧